أغلى ما أملك

نحو المجهول

رواية

الدكتورة

دانة أحمد الجدع

دار الضياء للنشر والتوزيع

ISBN 978-9957-05-217-1

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الضياء للنشر والتوزيع

عمان - الأردن

صندوق بريد: ٩٢٥٧٩٨ - الرمز: ١١١٩٠

هاتف وفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٧٨٥٠٢

البريد الإلكتروني: info@daraldia.com

الموقع على الإنترنت: www.daraldia.com

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٢٠١٣/٥/١٧٢٨

٨١٣,٩

الجدع ، دانة أحمد

أغلى ما أملك نحو المجهول / دانة أحمد الجدع ._ عمان : دار الضياء للنشر والتوزيع ، ٢٠١٣

(٢٢٠ ص) .

ر.إ. (٢٠١٣/٥/١٧٢٨).

الواصفات : // القصص العربية // العصر الحديث /

■ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

جميع الحقوق محفوظة

١٤٣٤ هـ | ٢٠١٣ م

تصميم الغلاف	أنس أحمد الجدع
رسمة الغلاف	دانة أحمد الجدع

الإهداء

أهدي هذا الجزء إلى من أحمل اسمه بكل فخر، والدي الغالي أحمد عبد اللطيف الجدع –رحمه الله، وأسكنه فسيح جنّاته.

إلى من أحبَّني، إلى من رفعني ودعمني وساعدني على كل إنجاز، إلى من آمن بي وبقدرتي على تخطي جميع الصعاب.

إلى من ضحّى، وسهر، وتعب، وحزن، إلى من جدّ وجاهد، إلى من أحبّ وأعطى، إلى من عفا وصفح، إلى من كان همّ الإسلام والمسلمين نصب عينيه إلى آخر لحظة في حياته.

أحمد عبد اللطيف الجدع، الأب الحنون، الزوج المخلص، الابن الوفي، الأخ الكريم، الصديق العزيز، الأديب العظيم، الشاعر الطليق، المعلم الصبور.

رحمك الله يا أغلى الناس، وأعاننا على فراقك، وأنزل في قلوبنا الصبر والاحتساب، فما لنا في هذه الدنيا من أعز، وما هناك ما هو أصعب من وداعك.

أحمد الله ولا أعترض على قضائه، ولكن العين تدمع والقلب يحزن.

ابنتك المخلصة، وتلميذتك المدللة، دانة أحمد الجدع

www.dr-danajada.com
danajada84@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله وحده لا شريك له

بسم الله الواحد الأحد الفرد الصمد

■ الكاتبة

الدكتورة دانة أحمد الجدع، مواليد ١٩٨٤ م الدوحة–قطر.

مؤلفة الروايات:

– الخامسة مساء الجمعة

– أمل في القمر

– إلى من قد لا ألتقيه

– وماذا بعد؟

– أغلى ما أملك : دروب الأشواك

تخرجتْ من كلّية الطب في الجامعة الأردنية عام ٢٠٠٧–٢٠٠٨، بشهادة الباكلوريوس في الطب البشري، وعملتْ في المستشفى الإسلامي في قسم الأمراض الباطنية.

باشرتْ كتابة الرواية "أغلى ما أملك" كسلسلة من ثلاث روايات منفصلة، وهذا هو الجزء الثاني من السلسلة.

البريد الإلكتروني:

Danajada84@yahoo.com

الموقع الشخصي:

www.dr-danajada.com

■ ■ ■

■ الجزء الثاني ■

■ الفصل الأول | أحمد

رستِ الباخرة في الميناء، كنتُ وهالة نحدق في المدينـة والنـاس، إنهـم مختلفـون، وجـوههم مختلفـة، ألـوانهم مختلفـة، وثيـابهم مختلفة!

كانت ثيابهم مقلّمة، ذات قماش سميك، وجيـوب كـثيرة، كمـا تنتشر بينهم القبعات بشكل كبير.

وكثـر القرميـد علـى المنـازل الحجريـة، حتـى باتـت كلـها متشابهة، كما كثرت الإعلانات والأسواق، تبدو مدينة مزدهرة.

ولكن ما كنتُ أريد أن ألحظه هـو طبـع سـكان المدينـة، هـل هـم باردون أم طيبون؟ كيف لهم أن يستقبلوا طفلين غريبين في المدينة؟

قاطع فيوج أفكارنا قائلاً: ستنزلان هذه المدينة.

نظرنا إليه وقلتُ: أعلم، فلا يمكننا البقاء في الباخرة إلى الأبد.

ابتسم فيوج وقال: إنها مدينة جيدة.

سألتْ هالة: هل أهلها طيبون؟

فكر فيوج قليلاً ثم قال: تجد في كل مكان أناساً طيـبين وآخـرين غير ذلك، ولكن عليكما أن تحذرا أمرين في هذه المدينة.

أشـار فيـوج بأصـابعه إلى نقطـتين، قـال: الأولى هـم المتـسولون

الـصغار، فهـم منتـشرون في كـل مكـان، ويـشكلون عـصابة كـبيرة، لا تشفقوا عليهم ولا تعطوا أحدهم قرشاً.

صغار، أهكذا يعيش أطفال هذه المدينة؟ تابع: والأمر الثاني هم شرطة الكشّافة الليلية، فهذه المدينة غير مستقلة، ويسير فيها جنـود الاحتلال ليعبثوا فيها كيف ما يحلو لهم، فلا تعترضوا لهم.

محتلّة! هل نزلنا في ساحة قتال؟

سمعنا صوت أمين يقاطع حديثنا، وينادينا أنا وهالة إلى حجرته الخاصة، تبعناه ففتح خزانته وأخرج منها نقوداً، وناولها لأحمد وهو يقول: هذا المبلغ يكفيكما مدة أسبوع في مدينة كهذه.

نظرنا إلى أمين ولم نعرف كيف لنا أن نشكره علـى أمـر كهـذا، فنحن فعلاً لا نملك قرشاً واحـداً، وفـوق ذلـك أخـرج ورقـة مـن جيبـه وناولني إياها، تحوي الورقة اسماً ورقماً وعنواناً، فأوضح: هذا عنـوان صديق لي، اتصلا به في أقرب وقـت، وأبلغـاه سـلامي، سـيعتني بكمـا جيداً.

نظرتُ إلى أمين وقلتُ بصدق: نحن فعلاً عاجزان عن الشكر، لقد قدّمت لنا الكثير، شكراً جزيلاً.

أشار أمين بـالنفي، وقـال: أعلـم أن والـدي كـان ليفعـل الـشيء

ذاته، هذه مساعدته إليكما.

دمعتْ عيوننا لتذكر الحاج غانم، لقد كان لطيفاً وكريماً في حياته، وإلى الآن ما يزال كرمه يغمرنا.

هكذا كان علينا وداع الأيام السعيدة في الباخرة، الراحة، والطمأنينة، والمحبة، والكرامة، كلها أمور شهدناها هنا لفترة وجيزة، والآن نودعها كلها لنبدأ حياة الله أعلم بها.

نزلنا من الباخرة بخطوات مترددة، ألا نستطيع البقاء؟ أن نعيش العمر في باخرة؟ ما المشكلة في ذلك؟

سمعنا صوت فيوج ينادي، كان يركض تجاهنا، توقفنا لنودعه ولكنه وضع قبعة فوق رأسينا وقال: هكذا لن تبدوا غريبين، على الأقل لبعض الوقت.

شكرناه على القبعات، ثم قلتُ: شكراً لك يا فيوج، فلولاك لما تسنى لنا أن نفتح صفحة جديدة في حياتنا.

ضحك وقال: لا داعي للشكر، اعتنيا بنفسيكما.

فسألتْ هالة على الفور: متى تعود هذه الباخرة إلى هذا الميناء؟

فكر فيوج قليلاً وحسب في ذهنه الرحلات المقررة، ثم أجاب: أظن... ليس أقل من شهر.

شعرنا بخيبة أمل، فقد كانت الباخرة ملجأ لنا، ولكن فيوج ابتسم قائلاً: لا تخشيا التغيير، فهناك دائماً الأفضل.

قلتُ: والأسوأ.

فقال: ولكنكما لم تفكرا بالأسوأ ساعة هروبكما من المنزل.

قالتْ هالة: ليس هناك ما هو أسوأ.

فقال فيوج: توكلا على الله، أنتما لم تقترفا جرماً وسيكون الله في عونكما.

■ ■ ■

■ الفصل الثاني | هالة

لم نعتد مغادرة المدينة، بل لم نعتد مغادرة المنزل، كانت والدتي متفانية في زراعة الحقل والعناية بالمنزل، كنا نخرج إلى المدرسة ونعود فوراً إلى المنزل، فقد كان الأمان والسعادة.

اليوم نضطر لطرق جميع الأبواب، لعل أحدها يحوي أملاً فقدناه.

تجولنا قليلاً في المدينة، طفلان لم يتجاوزا الثانية عشرة، لا يملكان سوى بضع دراهم في الجيب، وعنوان مجهول، وقلب قلق، وشقيق يعاني ذات المشكلة.

كان الضوء الوحيد لطريقنا هو هداية الله لنا، فلم نعد نملك في هذه الدنيا معيناً أو مرشداً.

لعلّ الله أراد لنا أن نكون وحدنا لنشعر به إلى جانبنا، لعلّنا كنا نعتمد على غيره طيلة الوقت إلى أن أزال من بيننا كل حاجز، هل كانت والدتي أحد هذه الحواجز؟

لا أريد أن أفكر هكذا، لقد قال الحاج غانم من قبل أن الله استودع والدتي في مكان أفضل، أحب أن أفكر هكذا، وأنني سألقاها يوماً، ولكن اليوم أمي لا ترشدنا، إن الله وحده معنا.

أشعر أنني سمعتُ هذا الكلام من قبل، لقد قالـه أحمـد لـي منـذ زمن، هل هذا ما كان يعنيـه؟ هـل توصـل إلى هـذه النتيجـة قبلـي؟ ألم أفهم ساعتها ما يرمي إليه؟

توقفنا في إحدى الحدائق العامة، نظرتُ حـولي فـإذا بمجموعـة من الشرطة تحوم وتجول، رغـم أننـا كنـا حـديثي الوصـول إلا أننـا لم يـصعب علينـا تمييـز الاخـتلاف الواضـح في الوجـوه والثيـاب، فهـذه الشرطة ليست من هذه المدينة، إنهم من حذّرنا فيوج منهم.

أمسك أحمد يدي، وقال: علينا ألا نلفت أنظار أحد إلينا، نحـن أشبه بهذا الشعب من هؤلاء.

كان كلامه صحيحاً، رغم أنـني ظننـتُ في البدايـة أننـا نختلـف كثيراً عنهم، إلا أن المقارنة بهؤلاء الشرطة جعلتنـا قـريبين جـداً مـن أهل هذه المدينة.

مشينا بثبات إلى جانبهم، ولم يلتفـت إلينـا أحـد، وسـار الأمـر على ما يرام، لقد حالفنا الحظ هذه المرة، ولكنني لم أكن لأمر ثانية إلى جانبهم، فيبدو لي أن الرحمة قد نُزعت من قلب كل واحد مـنهم قبـل أن يُرسل إلى هذه المدينة.

بينما ظننتُ أننا عبرنا بسلام، كانت هناك يد قد طالـت قمـيص

أحمد، وشدّته لترفع قدميه من على الأرض! نظرتُ بسرعة فإذا بأحد الجنود يرفعه بيد واحدة ويقول: أنتما لستما من هذه المدينة.

فرد عليه أحمد: وأنتم كذلك.

لستُ أدري كيف امتلك أحمد جرأة كهذه ليرد بمثل هذا الكلام، فقد كاد قلبي يسقط فقط لرؤيته معلّقاً في الهواء.

اقترب زميل الجندي وقال له مشيراً إلينا: لا تضيع وقتك في أمور تافهة.

فألقى الجندي بأحمد على الأرض، واستدار ليتابع سيره.

أمسكتُ بأحمد لأطمئن عليه، فرأيتُ بكل وضوح أن جسده كان سليماً، وكرامته كانت مجروحة.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث | أحمد

تجوّلنا في المدينة، وجلسنا في حديقة لنقابل شرطة الكشّافة التي حذّرنا فيوج منها، رغم أنه ذكر لنا أنها شرطة ليلية إلا أننا نراهم اليوم في وضح النهار.

من الواضح أنهم غرباء، يختلفون كثيراً عن أهل هذه المدينة، ومن الواضح أيضاً أنهم أشداء، ولا أتوقع رحمة منهم على الإطلاق.

كان علينا ألا نظهر أي تردد أو خوف، لا يجب أن نلفت الأنظار إلينا، فعلينا أن نتصرف بثقة أننا من أبناء هذا البلد، ولسنا طفلين ضائعين نسير في هذه المدينة منذ بضع ساعات فقط.

مشينا بالقرب من الشرطة بكل الثقة والشجاعة التي كانت في حوزتنا، ولكن ما كنا نجهله أن أهل هذه القرية لا يقومون بذلك، فالجميع يغيرون الطريق الذي يسيرون فيه فور مقابلة الشرطة، ولم يكن أحد ليجرؤ على المسير إلى جانبهم كما فعلنا.

أمسك بي أحدهم، ورفعني بكل سهولة، شعرتُ بضعف كبير، شعرتُ أنني لا أقوى على شيء، شعرتُ أنني أصغر بكثير من أن أقاوم، شعرتُ أنني بت تحت رحمته الغير موجودة.

قال: أنتما لستما من هذه المدينة.

لستُ أدري كيف نطقتُ بكلمات قوية رغم شعوري بالضعف: وأنتم كذلك.

ظننتُ أن أمري قد انتهى، وأنني تصرفتُ بحماقة، ولكن زميله اقترب يقول: لا تضيع وقتك في أمور تافهة.

رغم أن الشرطي ألقى بي على الأرض، إلا أنه قد ترك جرحاً عميقاً في نفسي، تافه، هذا أنا، هنا لستُ أكثر من ذلك.

أظن أن هذا كان أفضل ما كان سيحصل بين الشرطة وهذا الشعب المسكين، وأظن أنني كنت من المحظوظين القلائل، لربما كانت هذه إشارة لي لألا أتعرض لهم ثانية في مواقف أكبر.

تابعنا السير، وجلسنا في مكان بعيد عن الأنظار، وفتحتُ الورقة التي أعطاني إياها أمين، حاولتُ أن أقرأ ما كتب فيها.

لم أكن قد تعلمتُ الكثير في المدرسة، وقد حرصتْ زوجة أبي أن تخرجنا منها في سن مبكرة، ولكنني ما زلتُ أتذكر الأحرف والأرقام.

حدّقتُ في الورقة، وبدأتُ أهجّي الأحرف الأولى من الاسم: شـ... اد... فقاطعتني هالة تقول: شادي عبد الحفيظ، نظرتُ إليها فقالتْ: الاسم المكتوب هو شادي عبد الحفيظ.

أشارتْ إلى الرقم على الورقة وقرأت: هاتف ٣٢١٠٠٥٩، شارع

الأشراف، العمارة السابعة والأربعين.

لعجبي قد قرأته هالة بكل سلاسة وسهولة!

أذكر أن هالة كانت مواظبة على الدراسة، مجتهدة في المدرسة، فبينما كنتُ أحب اللعب وأتفوق في الرياضة، كانت تركز على الدراسة المجدّة، وتحفظ دروسها بانتظام، وتحظى بحب المعلمين.

اليوم ألاحظ الفرق الكبير في المستوى، فبينما نسيتُ معظم ما تعلمته في المدرسة، أجد هالة ما تزال تتقنه بشكل محترف، إنها ذكية.

في هذه اللحظة شممتُ رائحة زكية، ويبدو أن هالة أيضاً لاحظتها، إنها رائحة قوية فاحت فجأة، نظرنا حولنا فإذا بمتجر لبيع العطور بين المتاجر المتنوعة على الرصيف، لم يكن المتجر كبيراً، بل على العكس كان بسيطاً وفقيراً، ولكن ما إن تفتح صاحبته الباب لتضع بعض المسلات في الخارج حتى نشتم روائح زكية.

نظرتْ هالة إليّ ترغب في زيارة المتجر، ولم تكن رغبتي أقل من رغبتها، فقد كانت تجربة شيقة بالنسبة لكلينا.

فتحنا باب المتجر، وهبّ العبير ثانية أكثر قوة وإنعاشاً، ورحّبتْ بنا صاحبة المتجر.

كانت فتاة في أوائل العشرين، تربط حجاباً ملوناً علـى شـعرها، وترتدي مريول العمل فوق فستان بسيط، رحّبتْ بنا وسألتنا عن طلبنا، فبينما كنتُ أفكر في حبك إجابة مقنعة تحدثتْ هالة بكل صراحة: لقد جذبنا العبير الصادر من المتجر، إنها رائحة زكية.

ضحكتْ صاحبة المتجر وقالتْ: ليس من المفترض أن تعم رائحـة معينة المتجر، ولكن إحدى الزجاجات انكسرت صباحاً، وكانـت هـذه هي النتيجة.

قالتْ هالة: نتيجة طيبة جداً، هل أنتِ من يصنع العطور؟

أجابتْ صاحبة المتجر: معظمها.

سألتْ هالة: وهذا العبير اللطيف في المتجر، هل هو من صنعك؟

سرحتْ صاحبة المتجر قليلاً، ثم قرّبـتْ كرسياً لـتجلس عليـه، لستُ أدري ما الذي دفعها لتكـشف عمـا في قلبهـا لغـريبين، إلا أنهـا فعلتْ: نعم، إنه من صنعي ولكنه ليس من ابتكاري.

أوضحتْ قائلة: هذا عطر من زهرة نادرة في هذه المدينة، كانـت والدتي تتولى زراعتها في البرية، وتعتني بهـا علـى مـدار العـام إلى أن بات عبيرها ملازماً لثيابها على الدوام.

نظـرتْ إلى خـارج المتجـر حيـث يـسير جمـع كـبير مـن النـاس

وتابعتْ: كان هذا كل ما أذكره عنها، فقد كنت في الخامسة عندما اضطررنا للفراق، غادرتُ مع والدي إلى المدينة، بينما لم أسمع عنها أي خبر، وطال الفراق، إلا أنني لم أنس العبير الذي يرافقها أينما حلّتْ.

واليوم أعمل في بيع العطور، وقد اجتهدتُ كثيراً لصنع هذا العبير، عبير والدتي.

قالتْ هالة: هذه حكاية مؤثرة فعلاً، أحب أن أحصل على زجاجة.

ولكن صاحبة المتجر أوضحتْ: هذا العطر ليس للبيع، لقد صنعتُ العطر حتى أجدها، فيوماً ما ستسير بعبيرها المميز في الطرقات، وسأتعرف عليها.

كان هذا غريباً حقاً، تجد ضالّتها عن طريق عطر! ولكنها نظرتْ إلينا وقالتْ بعيون خبيرة: أنتما ضائعان.

ليس من الجيد أن يعلم أحدهم بهذه السهولة أننا لسنا من هذه المدينة، قلتُ: لسنا كذلك.

قالتْ: لستما من هذه المدينة، ولا تدريان أين تذهبان.

قلتُ: لدينا عنوان علينا زيارته.

أمسكتُ يد هالة لنغادر المتجر على الفور، سحبتها إلى الباب

فنظرتْ إلى صاحبة المتجر وقالتْ: على الأقل إنها على قيد الحياة.

لم ألاحظ تعابير وجه صاحبة المتجر عندما خرجنا، ولكن كلمة هالة تغلغلتْ في أعماق قلبي، إنها مؤلمة.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع | هالة

هل كان هناك عبير مميز لوالدتي؟ لماذا لا أذكر شيئاً مميزاً؟ رائحة الحقل، الطعام، المواشي... لا لم تكن تلك رائحة والدتي، ولكن كيف كانت رائحتها؟

أزهار... أزهار... هل هناك زهرة مميزة؟ لم يكن في حقلنا أزهار كثيرة، كما لم تكن هناك أزهار نادرة.

ربما تظن صاحبة المتجر أنها تعيسة، ولكنها في الواقع محظوظة، أولاً هي تذكر شيئاً مميزاً ومهماً عن والدتها، وثانياً... إنها تأمل في لقائها، فوالدتها... حيّة.

سحبني أحمد خارج المتجر، وقد كنتُ سعيدة أنه فعل، فلم أعد أريد متابعة الحديث، كما أن رأسي انشغل كثيراً بالروائح، وبدأتُ أفقد أعصابي بمجرد التفكير في رائحة والدتي!

ما إن خرجنا من المتجر حتى ارتطم أحد الأولاد بكتف أحمد، كان الولد يركض، وتابع الركض بعيداً، ولكن أحمد فهم بسرعة ما جرى، ووضع يده حيث كانت النقود، وصرخ فوراً: لقد سرقها! سرق النقود!

ركض أحمد بأقصى سرعته خلف الصبي، وحاولتُ أن أركض إلى جانبه ولكن أحمد كان أسرع مني بكثير، والأسوأ من ذلك أننا قد لفتنا

أنظار الكثيرين إلينا، وأهمهم الشرطة الكشافة.

أمسك بي اثنان من الشرطة، وشدّوا وثاقاً حول يدي، صرختُ أنادي أحمد الذي نظر خلفه فرآني على بعد عشرين متراً أصارع الشرطة، فترك السارق يجري في حال سبيله، وركض إليّ بسرعة يحاول مساعدتي، ولكن الشرطة أوسعوه ضرباً حتى نزف من أنفه وفمه، وشدوا وثاقه هو الآخر، وقاموا بسحبنا إلى سيارة كبيرة حديدية.

أعادتْ هذه السيارة الذكريات، مثل هذه السيارة كانت ستعيدنا إلى منزلنا، بينما لا أظن أن هذه السيارة تفعل شيئاً كهذا! أظن أننا وقعنا في مشكلة كبيرة.

كان رباط خشن قد شُدّ على أيدينا وأقدامنا، وألقي بنا في صندوق السيارة الحديدي بين القضبان، ومن الملاحظ أننا لم نكن وحدنا، فقد كان هناك خمسة صبية تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثامنة عشرة، معظمهم ضُرب بشدة، وبعضهم يستلقي نائماً أو مغمياً عليه!

أغلق الشرطة الباب، وتحركتْ السيارة، فهرعتُ إلى أحمد الذي كان ما يزال ينزف، حاول الجلوس بصعوبة وقال: أنا بخير.

كان يتألم، كما أنه كان خائفاً، في أي مصيبة وقعنا وقد فقدنا

المال والحرية، أظنه يلوم نفسه على خسارة النقود، فقد حـذّرنا فيـوج من اللصوص والشرطة، وقد وقعنا في كيد الاثنين.

نظرتُ إلى الشوارع في الخارج مـن بـين القـضبان، إنهـا كئيبـة، هذه المدينة لا تعيش في سعادة، الشرطة تخطف الصبية، فأين آباؤهم؟

عندها سمعتُ أحمد يقول في قلق: الورقة! أين الورقة؟

نظرتُ إليه فإذا به يحاول البحث في جيوبه القليلة عـن الورقـة التي أعطانا إياها أمين، عندما لم يجدها في الجيب الأول أو الثاني بـدأ يتوتر، فالورقة كانت أهم من النقود في مدينة مجهولة.

بحث مجدداً، نظـر حولـه دون فائـدة، لقـد أُخـذتْ مـع النقـود بطريقة ما! يبدو أن اللصوص هنا محترفون جداً.

وضع أحمد يده على رأسه، هـذه مـصيبة حقيقيـة، بـدأ يحـاول تذكر ما في الورقة، قال: شادي... شادي... شادي... عبد...

ولكنـه لم يهتدِ لأكثر من ذلـك، أمـا الـرقم: ٣... ٠٠... أوه، لا أستطيع ذلك... لقد فقدناها!

ولكنني اقتربتُ من أحمد ووضعتُ يدي المقيدة على كتفـه وقلـتُ بثبـات: شـادي عبـد الحفـيظ، هـاتف ٣٢١٠٠٥٩، شـارع الأشـراف، العمارة السابعة والأربعين.

■ الفصل الخامس | أحمد

لقد فقدتُ النقود، وضُربتُ بشدة، وحُبستُ في السيارة، ولكن أن أفقد دليلنا إلى من يرشدنا في هذه المدينة فهذه كارثة حقيقية!

بحثتُ في كل مكان عن الورقة، ولكنها لم تكن في أي مكان، يبدو أن اللص قد سرقها فيما قد سرق، ماذا أفعل الآن، يجب أن أتذكر ما كُتب فيها!

ربما أتذكر الاسم، وماذا عن الرقم؟ هذا مستحيل، ماذا أفعل؟

لقد فقدنا كل شيء، لم أكن على قدر جيد من المسؤولية، ليتني كنتُ وحدي ولم تعاني هالة من أخطائي، ماذا ينتظرنا الآن؟

ولكن هالة جلستْ إلى جانبي بهدوء، ووضعتْ يدها المشققة التي أعلم كم عملتْ بجد في السنوات الماضية، والتي رُبطتْ بالقيود اليوم بسببي، وقالتْ بدون مشقة تُذكر: شادي عبد الحفيظ، هاتف ٣٢١٠٠٥٩، شارع الأشراف، العمارة السابعة والأربعين.

هذا بالضبط ما كُتب على الورقة، بالترتيب نفسه، إنها تذكره كمن يقرأه من كتاب مفتوح، دون تردد، دون تأتأة، إنها تحدثني عن أمر طبيعي جداً.

لم أعد أدري هل أعاني من فقد الذاكرة، هل أنا ضعيف في

القراءة لدرجة تجعلني لا أذكر ما أقرأ، أم أن هالة شديدة الذكاء؟

لقد كانتْ هالة من تذكر اسم الحاج غانم على صدر ابنه أمين، ولم أكن لأذكره لو كنتُ وحدي، والآن تذكر هالة الرقم المكتوب على الورقة جيداً، هل حفظته لأنها خشيتْ على الورقة من الضياع؟ هل كانت تفكر أفضل مني، أم أن ذاكرتها كانت مميزة منذ البداية؟

لستُ أدري، ولكن هناك بصيص أمل، ما زلنا نملك العنوان، أما الآن فعلينا أن نهرب من هنا بأي وسيلة.

نظرتُ حولي، هناك خمسة صبية غيرنا، يبدو أنهم عوملوا بقسوة، أحدهم يستلقي على الأرض فاقداً وعيه، تبدو أسنانه مكسّرة من شدة الضرب، وآخر كان يجلس مغمض العينين، يبدو أنه نائم، إحدى عينيه كانت قد تورمتْ بشكل سيء، وعليه رضوض في كل مكان.

الثلاثة الباقين كانوا جالسين يحدقون في الفراغ ويندبون حظهم العاثر، يبدو أنهم يتوقعون الأسوأ.

هل هم من اللصوص الصغار؟ هل نستطيع التحدث إليهم أو الوثوق بهم؟ هل هم من المساكين أمثالنا؟ كان عليّ أن أسأل رغم الجو المتوتر.

اقتربتُ من أحد الثلاثة الجالسين، وسألته: إلى أين يأخذوننا؟

ابتسم ابتسامة ساخرة وقال: أنت لستَ من المدينة.

لم أفكر في التحايل الآن، أشرتُ بالنفي، فتابع قائلاً: لماذا حضرتَ إلى هنا؟

أجبتُ: غادرتُ مدينتي أترحّل بين البلدان، ولم أحضر إلى هنا لشيء معين.

زادتْ ابتسامته وقال: أنتَ سيء الحظ.

لم يقل أكثر من ذلك، فنظرتُ إلى الآخر، فأشار بيده أنه لا يرغب في الحديث، فنظرتُ إلى الثالث وسألته: إلى أين نذهب؟

أجاب باستهتار: لا يستطيع أحد أن يخمّن، ولكن من يدخل هذه السيارة لا يُرى ثانية أبداً.

دبّ الخوف في صدري، ورأيتُه في عيون هالة التي سألتْ: هل سيقتلوننا؟

حوّلتْ هالة نظرها إلى الصبي على الأرض، ولكن أحد الصبية قال: إنه فاقد الوعي بسبب الضرب المبرح، ولكنه لم يمت بعد.

قلتُ: وماذا يجنون من قتلنا؟

قال الثالث: لن يقتلونا، بل سيستعبدوننا، وهذا أسوأ من القتل.

سألتْ هالة: ولمن سنعمل؟

أجاب: للأعداء.

لم يصعب علينا تخيل المشاكل بين الشرطة والمواطنين، فهذه دولة غير مستقرة، وفيها جيش محتل، ولسنا ندري هل سنبقى في هذه المدينة أم أن الخطة أن ينقلونا إلى الدولة الأم لنعمل هناك؟

توقفتْ السيارة، لم أكن على علم بشوارع المدينة، ولم أعلم حتى إذا ما كنا ما نزال في نفس المدينة أم أننا خرجنا من الحدود. فتحوا الباب وأخرجونا من السيارة، وضربوا الصبية النائمة وأجبروهم على النهوض، ونزلنا وادياً سيراً على الأقدام المقيدة.

كان المنحدر شديداً، ويزداد انحداراً كلما نزلنا، وكان هناك جمع كبير في الأسفل يعملون في الصخر، يبدو أنهم يستخرجون شيئاً ما.

أُجبرنا على النزول أكثر فأكثر، ما تزال المسافة بعيدة، ولكن وبسبب الانحدار الشديد كان هناك درج محفور في الصخر مصمم للنزول بعد أن تعذّر علينا نزول المنحدر.

أمسكتُ بيد هالة خشية أن تسقط، فالوادي عميق، والسقوط من هنا مميتٌ دون شك.

هالة كانت تحـدّق في الأسـفل، كـان القلـق واضحاً عليهـا، أهـو الخوف من المرتفع، أم الخوف مما في الأسفل، فقد كانـت هنـاك أعـداد هائلـة تحفـر وتحفـر، وكـان هنـاك الكـثير مـن الـشرطة أيـضاً يقفـون لحراسة المكان، وإجبار الناس على العمل المتواصل.

فجأة قبضتْ هالة يدها على يـدي بـشدة، وقالـتْ بقلـق شـديد: انظر هناك.

كانت هناك زاوية في الوادي ألقيتْ فيهـا مجموعـة مـن الجثـث فوق بعضها، لم يصعب عليّ تخيل أنهم من ماتوا بسبب قسوة العمل.

سمعنا فجأة صوت صراخ، كان أحد الشرطة يجلد أحد العاملين، وكان العامل يصرخ بشدة، توقفنا عن المسير نراقـب مـا يحـصل، فبعـد لحظات سنكون في الأسفل أيضاً، وفي لحظة خاطفة تـرك أحـد العـاملين العمل لينجد زميله، وقفز على الشرطي، ولكـن الـشرطي رمـاه أرضـاً، وقام شرطي آخر بإطلاق رصاصة على رأس العامل.

وقفتُ أمام هالة أحجـب عنهـا الرؤيـة بعـد فـوات الأوان، فقـد عاينتْ ما شاهدنا جميعاً، ولكن وقبل أن نجـزع ممـا رأينـا أفلـتَ أحـد الصبية من الشرطة حولنا، وألقى بنفسه في الوادي لـيخلّص نفسه مـن عذاب قادم.

ثوان وسمعنا صوت ارتطام جسده بالصخور في الوادي، وإلى أسفل، لقد انتهى دون أدنى شك.

تجمدتْ أقدامنا جميعاً، ولم يجرؤ أحد منا على النظر إلى الأسفل ثانية، ولكن الشرطة حولنا كسروا الصمت، وصرخوا يأمروننا أن نتابع المسير إلى الأسفل.

كانت هالة ترتجف، ولم أكن أقل منها خوفاً، فهي دقائق معدودة ونصبح ضمن العاملين في الأسفل، وتبدأ صفحة جديدة من المعاناة في حياتنا.

■ ■ ■

■ الفصل السادس | هالة

أمي... لِمَ يحصل كل هذا؟ ماذا فعلنا لنستحق ما يحصل لنا؟ وما هذا المكان؟

أريد العودة إلى البيت، أريدك أن تكوني هناك، أن تنتظري عودتي من المدرسة، أن يكون طعامك معداً، أن نرسم معاً، هل هذا كثير؟

في لحظة خاطفة مات اثنان أمام عيني، كما أن أحدهما قد قرر أن ينهي حياته قبل العذاب المؤكد، هل سنتحمل ما في الأسفل؟

إنني خائفة، لا أستطيع أن أتوقف عن الارتجاف، أحمد الله أن أحمد إلى جانبي، ولكنه سيعاني هو الآخر ما نرى، أريد العودة إلى المنزل.

أنا طفلة غريبة عن المدينة، جاهلة بما يحدث خارج منزل بسيط في الريف، لا تجيد عملاً سوى الأعمال المنزلية والزراعة، ماذا يريدون مني هنا؟

أمسك أحمد بي، أليس من مفر يا أحمد؟ ألا يتركوننا نذهب؟ ألا نستطيع أن نهرب؟ أليس الهرب ما نجيد؟

تابعنا النزول رغماً عنّا، وفي كل خطوة كنا نقترب من الجحيم، لا تنتهي يا منحدر، أرجوك ابق مرتفعاً، أبقنا بعيداً عن الأسفل.

ولكنها لحظاتٌ قصيرة وكنّا في الأسفل، لم أعد أقوى على حمل قدمي، بل إنني لم أعد أشعر بهما، هنا يعمل كثير من الشباب من مختلف الأعمار، أما عدد الإناث فكان لا يذكر، ماذا سيحل بي؟

لا أصدق أن قدمي تلمس القاع، لقد وصلنا أسرع مما ظننت، لماذا يسرع الوقت ويبطئ عكس ما نشاء؟

اصطففنا كما طُلب إلينا، وقد رمقنا كل رجال الشرطة هناك بعيون لا ترحم، ونظروا إلينا نظرة تفحص من الرأس إلى القدم، وقد بدا عليهم الاستياء الشديد.

اقترب أحدهم منا، يبدو أنه كبيرهم، ألقى بنظرة خاطفة على المجموعة ثم قال موجهاً حديثه إلى الشرطة التي أحضرتنا: العدد والكفاءة تتناقص يوماً بعد يوم.

أجابه: بات الناس أكثر حذراً.

فردّه القائد: عذر أقبح من ذنب.

وتجاهله تماماً لينظر إلينا من جديد الواحد تلو الآخر، اقترب أكثر، فكانت عيناه غائرتين، وأسنانه قذرة، ورائحته كريهة، أبعدتُ نظري عنه فساءه ذلك، ولكنه تجاهلني وتابع التحديق في الآخرين.

التفت قائدهم إلى أحد الشرطة ليتابع العمل من هنا وتركنا،

فاقترب شرطي غليظ منا، شعرتُ أنه يقترب من أحمد، ومدّ يده ولكنه أمسك رأس الصبي إلى جانب أحمد في آخر لحظة، وشده من شعره، وألقاه أرضاً أمامنا ووضع قدمه على ظهره، ونظر إلينا بعيون قوية وقال: تعملون هنا دون تذمر، يمنع أن ينطق أحدكم بأي كلمة، لا أحاديث جانبية، لا انقطاع عن العمل، النوم والطعام بالتناوب، فما يزال لدينا عمل كثير.

لم أكن أركز بما يقول، فلم أستطع أن أزيح نظري عن الصبي تحت قدمه، فبأي لحظة كان يمكن أن يكون أحمد! ماذا كنتُ سأفعل حينها؟ هل سأقف مكتوفة الأيدي كما أفعل الآن؟

شعرتُ بآلام الصبي الجسدية والنفسية وهو ملقى تحت قدم شخص مستبد، ولكن أي حركة أبديها لن تكون لصالح أحد، ولن يتوانى عن ضربي حتى وأنا فتاة، وماذا سيفعل أحمد إذا ما أمسكني أحدهم هنا ليضربني؟ هذه سلسلة لا تنتهي من التعذيب والقهر.

قام شرطي آخر بدفعنا إلى العمل، اقتربنا من بعض الفؤوس الكبيرة، وكان علينا أن نحملها، ولكن كان من الواضح أنها ثقيلة علينا، وربما لا أقوى على رفع إحداها شبراً عن الأرض، وهذا ما حدث بالفعل.

أمسكتُ الفأس مرغمة، وحاولتُ أن أزحزحه عن الأرض فلم يتحرك، سمعتُ صوتَ ضحكاتٍ من الشرطة، إنهم يستمتعون بعملهم، أي قلوب يملكون؟

عندها اقترب أحد الشرطة مني، شعرتُ بدقات قلبي تتسارع، بل إنها تكاد تغادر صدري دون رجعة، ماذا سيحل بي؟

اقترب مني الشرطي، ولم تعد تفصل بيننا سوى أربعة أقدام، عندها وقف أحمد بيننا بسرعة.

لا، لا تفعل! ألم تر ماذا سيحل بنا؟ لا تقف في طريقهم أرجوك...

فجأة صدر صوتٌ حاد، إنه مزعج للغاية، ولكننا بعد لحظات شعرنا بالضباب حولنا، ولم أعد أرى أو أسمع شيئاً.

■ ■ ■



■ ■ ■

■ الفصل السابع | أحمد

يبدو أن المدينة تحوي أكثر مما حذّرنا منه فيوج، فبالإضافة إلى اللصوص والشرطة المستعمِرة، هناك هذا الوادي الذي يُستعبد فيه الصغار للعمل ليل نهار، إنهم يستخرجون أحجاراً معينة للشرطة، أظن أنها باهظة الثمن.

أجل، هنا في هذا الوادي ما يزال الاستعباد قائماً، والأعمال الشاقة واجباً، يبدو أن كل من يدخل هنا يعمل حتى الموت.

بعد وصولنا إلى الأسفل، أُخذ أحدنا ليُضرب أمامنا لنعتبر به، لم يكن ذلك غريباً، ولكنه لم يتوانى عن ضربه بكل قوة، فكيف له أن يعمل الآن؟

بل ماذا يريدون من هالة؟ أيظنون أنها قادرة على القيام بهذا العمل؟ أم أن لها أعمالاً أخرى؟

ليس هناك الكثير من الفتيات، يبدو أن بعضهن يحفر والأخريات يعددن الطعام، لا يبدو إعداد الطعام سيئاً.

دفعنا الشرطي إلى الفؤوس لنبدأ العمل على الفور، أمسكتُ مقبض الفأس فكان أثقل من فأس الحراثة في منزلنا عشرات المرات، هذا فأس للصخر، وهو يختلف عن فأس التراب والزراعة.

نظرتُ إلى هالة تحدق في الفأس حائرة فيما تفعل، إنه أثقل من أن تزحزحه، وسمعتُ ضحكاتٍ تنطلق من خلفنا، إنهم يضحكون عليها، لقد لفتت الانتباه إليها بسرعة.

اقترب الشرطي من هالة، فلم أستطع أن أفكر في شيء، فقد غلى الدم في عروقي، لماذا يلحق بنا العذاب حتى على بُعد أميال من منزلنا؟ لماذا على هالة أن تعاني؟ لماذا لم أكن عند حسن ظنها في قرار الهروب هذا؟

تحرك جسدي من تلقاء نفسه، ووقفتُ أحول بين الشرطي وهالة، بم أفكر؟ سأُضرب بشدة، بل وستُضرب هالة من بعدي! ماذا أفعل؟ كان عقلي قد توقف عن التفكير، ليس هناك ما أفعله.

عندها سمعنا صوتاً حاداً من أعلى الوادي، من بعدها عمّ ضباب أبيض المكان، وشعرتُ بدوار، إنني أنام، أين الشرطي؟ أين هالة...؟

سمعتُ أصواتاً مختلفة، ونقاشاتٍ ربما كانت حادة، وقد رُفعنا عدة مرات ونُقلنا من مكان إلى آخر، لستُ أدري كم من الوقت انقضى، ولكنني بدأتُ أشعر أنني أهتز يميناً وشمالاً ببطء شديد، أين أنا؟

فتحتُ عيني، فإذا بأشعة الشمس تسطع فوقي، كان النور قوياً يمنعني من النظر مباشرة إلى ما يحوطني، رفعتُ يدي أحجبُ الضوء

المباشر عن عيني إلى أن اعتادتا الإبصار.

كنتُ أهتز يميناً وشمالاً، لم أكن أرقد على شيء ثابت، رغم أن الأرض تحتي كانت قاسية كالخشب، وهذه الرائحة حولي كانت مألوفة، نظرتُ إلى اليمين، فكان شعر هالة بالقرب مني، إنها ترقد هنا أيضاً، أكاد لا أذكر شيئاً مما حدث!

رفعت جسدي بصعوبة، وأخيراً تحققتُ من المكان، إننا في عُرض البحر!

انتابني الخوف، رغم أننا كنا للحظات... ربما لساعات في وادٍ ننتظر العمل والعذاب، إلا أن منظر البحر الهائل، يسير فيه قارب صغير بطفلين لم يكن لطيفاً أبداً.

أين نحن الآن من هذه الدنيا؟ ومن وضعنا هنا؟ وهل كان ينوي مساعدتنا أم التخلص منا؟

شعرتُ بنسيم الهواء، إنه بارد، ليس هناك ما يحجبنا عن أي شيء. نظرتُ إلى هالة التي كانت ما تزال نائمة، لقد كنا نغط في نوم عميق، مَن هؤلاء الذين أخرجونا من الوادي؟ لا أظن أنهم قدموا من أجلنا أنا وهالة، بل ربما كنا عثرة في طريقهم فحاولوا التخلص منا بإلقائنا هنا!

لستُ أدري، لم أعد أفهم هذا العـالم، تلـك الدولـة كانـت مثـالاً حيّاً لدولة فقدت الاستقرار والأمـان، مـا كـان علينـا أن ننـزل هنـاك! ولكن إلى أين الوجهـة الآن؟

اقتربتُ من هالة، كانت نائمـة بهـدوء، ولا يبـدو أن أحـداً قـد مسّها بسوء، يبدو أنها تغط في النوم كما كنتُ.

قلتُ بصوتٍ خافت: هالة... هالة أتسمعينني؟

تحركتْ هالة قلـيلاً إلى أن فتحـتْ عينيهـا واسـتيقظتْ، رفعـتْ جسدها المنهك لتشاهد ما آلتْ إليه حالنا.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن | هالة

أشتمّ رائحة غريبة، بل إنها مألوفة، هل هذه رائحة والدتي؟ لا... ليستْ رائحة والدتي، ولكنها حتماً تذكرني بشيء ما...

سمعتُ صوتاً خفيفاً ينادي، فتحتُ عيني فرأيتُ أحمد، كنتُ سعيدة جداً بذلك، ولكنني كنتُ متعبة، جسدي كان يؤلمني، إضافة إلى صداع شديد ورغبة في التقيؤ!

رفعتُ جسدي لأجلس، فتحققتُ من المكان حولنا، إنه بحر! ولا شيء سوى البحر!

نعم، تلك كانت رائحة البحر، ولكن... لماذا يبدو مخيفاً وشاحباً هكذا؟ أين السفن؟ أين الناس؟ أين الشاطئ؟ أين نحن؟

وضع أحمد يده على كتفي وقال: هالة، أظن أن أحدهم قد حررنا من الوادي.

نعم... الوادي! العذاب، الخوف! رأسي يؤلمني، لا أريد أن أتذكر شيئاً من ذلك، ألم يكن كابوساً؟

تابع أحمد: ولكنني لا أظن أنه كان يقصدنا بالتحديد، بل ربما قد تخلص منا.

قلتُ: وألقانا في البحر!

أجاب: في الواقع ألقانا في قارب صغير في البحر.

لا أصدق أن أحمد ما يزال يتحدث بنبرة تختلط بالتفاؤل! ما لنا والبحار؟ نحن لم نُجد يوماً ركوب البحر! نحن طفلين في عرض البحر لا نعرف أين نحن ولا نعرف إلى أين نتجه!

قلتُ: أحمد، إننا في ورطة كبيرة، فهذا بحر كبير ولا نقدر على مجاراته.

أجابني: توكلي على الله، فقد بعث إلينا بأناس لا نعرفهم في وقتٍ كنا نظن فيه أن الموت أرحم، أما الآن فلدينا الوقت للتفكير.

قلتُ: تفكير! فيم تفكر؟

نظرتُ حولي وقلتُ: ليس هناك موج في هذا البحر، لن يقودنا إلى أي مكان، ولسنا نملك الطعام ولا الماء، كم يوماً تظن أننا سنقضي هنا؟ سنموت من الجوع والعطش!

وضع أحمد يده على ذراعي وقال: لا يجب أن نتوتر، سوف أتحرى أسلوباً لقيادة القارب ومعرفة الطريق، أما أنت فخذي قسطاً من النوم، علّه يقلل حاجتك إلى الطعام.

لا أصدق أن أحمد ما يزال هادئاً، أنا أكيدة أنه يشعر بالجوع والعطش مثلي، ولكنه يكابر، أما يزال يظن أنه المُلام على ما نحن

فيه؟ أما يزال يظن أنه المسؤول عما يجري؟

طلب إليّ أن أستلقي، وأغمض عيني لأنام، لم أجادل، فلم تعد لدي طاقة لذلك.

أغمضتُ عيني، وبات الهدوء يعم المكان، ليس لهذا البحر أمواج، ليست هناك من أصوات، نبدو بعيدين جداً عن أي مرفأ.

رائحة البحر كانت ما تبقى الآن، إنها قوية، عندها تذكرتُ السؤال الذي فكرتُ فيه مراراً، سألتُ أحمد: أحمد... كيف كانت رائحة والدتي؟

فتحتُ عيني لأنظر إلى وجه أحمد، الذي لم يفكر كثيراً وقال: إنها تشبه رائحتك تماماً.

يا لها من إجابة، شعرتُ بقشعريرة في جسدي، كم نطق تلك الكلمات ببساطة، أنا أحمل رائحة والدتي، ولكنني لا أشتم رائحتي، هذا لأنني معتادة عليها، لذلك لم أعرف رائحة والدتي، فلم أكن أشتم شيئاً مميزاً!

دمعتْ عيني، فربّت أحمد على شعري يطلب إليّ أن أنام، فحل السكون على المكان أكثر، وبدأتُ أشعر بأشعة الشمس تلامسني، ليس هناك ما يحول بينها وبيني، بل ربما ليس هناك ما يحول بيني وبين أي شيء.

هالة... كيف تقولين ذلك؟ للحظات فقط كاد الشرطي يفتك بك، وكنتُ أتساءل ماذا سيفعل أحمد إذا ما أوذيتُ، ولكن الواقع أن أحمد لن يسمح أن أؤذى، ولن ينتظر لذلك أن يحدث حتى يتصرف.

لا أريد أن أكون جاحدة، وأنتِ أيتها الشمس، إذا ما كنتِ تحرقين بأمرك فافعلي، وأما إذا ما كنتِ مأمورة فإني أدعو إلهكِ، رب هذا الكون الواحد أن تكوني حميمة دافئة علينا إلى أن نصل إلى بر الأمان.

■ ■ ■



■ ■ ■

■ الفصل التاسع | أحمد

لقد فقدتُ الإحساس بالوقت، وكنتُ أتمنى أن أفقد الإحساس بالجوع والعطش! لا يبدو أن هذا البحر يوصلنا إلى أي مكان، وما أخشاه أن يكون هذا محيطاً وليس بحراً!

لستُ أدري كم من المسافة قطعنا، بل لستُ أدري إذا ما كنا ندور في دائرة مقفلة، إلى متى يا ترى؟

لا يجب أن ننتظر أكثر، كنتُ أحاول أن أوفر طاقتي حتى لا أحتاج إلى الطعام، ولكن ليس باليد حيلة، عليّ أن أحاول التجديف وتحريك القارب.

إلى أين؟ الله وحده أعلم، وضعتُ يدي في الماء، ودعوتُ الله أن يهدينا الطريق الصحيح، وبدأت أجدف.

تحرك القارب بسهولة، فلم يكن كبيراً، وكانت المياه هادئة، ليتني فعلتُ ذلك منذ مدة! ولكن ما يزال الطريق مجهولاً رغم ذلك.

هل أتجه شمالاً أم جنوباً؟ شرقاً أم غرباً؟ كيف لي أن أعرف أقرب طريق إلى اليابسة؟ فليس لي علم بالبحر، ولستُ أرى أي علامة على مد البصر!

فقط جدّف... جدّف يا أحمد... جدّف وليقذف القدر بك إلى أي

مكان، فقط جدّف.

أظـن أن سـاعة كاملـة قـد مـضتْ دون أي أثـر لأي شـاطئ، لأي طائر، لأي تلال، هذا بحر ممتد إلى لانهاية! ماذا أفعل يا إلهي؟ إنني جائع وعطش!

نظرتُ إلى الماء، لم يكن هناك من سمك قريب، وحتى لـو رأيتـه ما كنتُ أجيد الصيد على الإطلاق، يبدو أنني لا أجيـد شـيئاً، يبـدو أن العمل الشاق الذي كنا نعمله في المنزل لم يكن سوى عمل مرهق لا يفيـد في شيء.

نظرتُ إلى هالة التي كانت ما تزال نائمـة، كـم مـرة سـأخذلها؟ إنها تضع ثقتها الكاملة فيّ، بـل إنهـا لم تـأنبني يومـاً علـى قـراري في الرحيل، رغم أنني بدأتُ أشعر ببعض الندم.

ما الفائدة إذا ما انتهينا هنا؟ إننـا كمـن انتحـر بعـد الظلـم، لم نستطع بناء حياة جديدة، لم نستطع فعل شيء حتـى الهـروب... كـلا أحمد كـلا... لا يجـب أن تـسمح لهـذه الأفكـار أن تحبطـك الآن، لقـد مررنا بالكثير، ولستُ أدري إذا ما كان هـذا اليـوم هـو الأسـوأ، ولكـن حتى إذا ما كان، فهذا لا يعني أن نستسلم.

جدّف... جدّف... جدّف... حتى نصل إلى آخر الدنيا...

بدأتُ أشعر بخدر في ذراعي، لم أعد أقوى على تحريكها، إضافة إلى الجوع والعطش، نظرتُ إلى هالة التي كانت ما تزال نائمة، الآن بتّ أظن أنها قد فقدت وعيها، وهذا ما أوشك عليه أنا، إنني أحاول إبقاء عيني مفتوحة، ولكنها ثقيلة كجبل، لم أعد أقوى على شيء...

حاولتُ أن أمد يدي إلى هالة... هالة... أنا آسف...

■ ■ ■

■ الفصل العاشر | هالة

أمي... أمي... هل هذه أنتِ؟ لماذا لا تجيبين؟ لماذا تبتعدين؟ أمي...

فتحتُ عيني بصعوبة، لم أعد أشتم رائحة البحر، ولم يكن المكان هادئاً، كانت هناك الكثير من الأصوات حولي، والكثير من الناس يسيرون في غرفة مغلقة! أين أنا؟

نظرتُ حولي من جديد، هذه الثياب... إنها ثياب ممرضات! وهناك إبرة على يدي، ومغذٍ إلى جانبي! إنني على اليابسة.

حاولتُ أن أسند ظهري، فانتبهت إحدى الممرضات إليّ، وركضتْ تجاهي تنادي زميلاتها أن ينادين الطبيب على الفور، وطلبتْ إليّ ألا أجهد نفسي، وأن آخذ قسطاً كافياً من الراحة.

سألتها: أين أنا؟

أجابتْ: لقد أوصلكما بعض الأشخاص وقد وجدوكما في قارب في البحر...

هرعتُ في مقاطعتها وسألتُ: أين أحمد؟

ابتسمتْ وقالتْ: اسمه أحمد، إنه في غرفة أخرى، لا تقلقي عليه.

ارتـاح بـالي، لقـد نجونـا، فـسألتني: ومـا هـو اسمـك أيتهـا الجميلة؟

أجبتُ: هالة.

عندها حضر الطبيب، كان شاباً في مقتبل العمر، يرتدي الـروب الأبيض، وثياباً أنيقة تحته مع ربطة عنق.

لماذا كان تصوري عن الأطباء أنهم أكبر من والدي؟

اقـترب مـني وفي وجهـه ابتـسامة جميلـة، وجلـس إلى جـانبي يقول: كيف حال أميرتنا الصغيرة؟

أميرة! متى كانت آخر مرة أثنى عليّ أحدهم فيها؟ بـل أظـن أن مظهري بات سيئاً للغاية مذ غادرنا المنزل! أجبتُ: بخير.

سألني: ماذا كنتما تفعلان وسط المحيط؟

محيط! لم يكن بحراً إذن! لا عجب أنه كان مخيفاً.

لم يكن لدي جواب مناسب، ومع ذلك كان ينتظر مني الإجابـة، قلتُ: لستُ أدري.

ضحك وقال: أنتما أصغر من أن تقوما بمغامرة، فارسـك يـرفض الحديث في أي شيء.

قلتُ: هل أحمد بخير؟

أجاب: إنه بخير، يقاوم الجميع ليحضر إلى هنا، ولكنه لا يعرف الغرفة.

قلتُ: إنه أخي، أرجوك دعه يحضر.

وافق الطبيب على ذلك، وما هي إلا دقائق حتى سُمح لأحمد أن يدخل الغرفة، ركض إليّ وعانقني فرحاً بسلامتي، وتركنا الطبيب وحدنا.

شعور غريب كان يشدني إلى الطبيب، كنتُ أنظر إليه يخرج من الباب... أرجوك لا تخرج... أريد أن أرى ابتسامتك ثانية، أرجوك...

شعور ما أخبرني أنها المرة الأخيرة التي يدخل فيها الطبيب عليّ، وقد أخبرني كذلك أن الأمان والهدوء على هذا السرير سينتهي بعد لحظات.

قاطع أحمد أفكاري ينظر إلى وجهي ثم ذراعي وهو يقول: هل أنت فعلاً بخير؟

أجبته: نعم، لم أُصب بأي مكروه، ماذا عنك؟

أجاب: أنا بخير.

سألتُه: ماذا جرى؟ هل وجدنا أحدهم وسط المحيط فعلاً؟

ابتسم أحمد وقال: في الحقيقة لا أعرف التفاصيل، فقد فقدتُ

وعيي في عُرض المحيط، أنا آسف.

سألتُه: ولماذا تعتذر؟

طأطأ رأسه وأجاب: كان عليّ أن أكون مسؤولاً عمّا نفعل، وأن أحملك إلى بر الأمان.

ابتسمتُ وقلتُ: من عُرض المحيط؟ وهل تظن أنني كنتُ أتوقع النجاة؟

نظر أحمد إليّ فقلتُ: أحمد، لا تُحمّل نفسك ما لا طاقة لك به، لقد كنّا طفلين عالقين في عُرض المحيط، فكيف لنا أن ننجو؟

ابتسم أحمد وقال: وقد نجونا.

قلتُ: بتدبير الله وحده.

أشار أحمد بالإيجاب، ثم اقتربتْ ممرضة إلينا، وقد عرفنا مُسبقاً الحوار الذي سيدور الآن، وكالعادة كان علينا أن نصْدُق، فالصدق كان سلاحنا الوحيد.

سألَتْ: كيف حالكما الآن؟

أجبنا أننا بخير والحمد لله، فسألَتْ: أين والدكما؟

قال أحمد: ليسا في هذه المدينة، لقد علقنا في قارب رمى بنا وسط المحيط.

سألتْ: هل من أقرباء؟

أشرنا بالنفي، فقالتْ تختصر الحوار: أليس هناك من يدفع تكاليف العلاج؟

قال أحمد: لسنا نملك نقوداً.

شعرتْ الممرضة بالحيرة، يبدو أنها قد وقعتْ في مشكلة، فنظرتْ إلينا وقالتْ: أنا آسفة، ولكن يتوجب عليّ أن أبلغ إدارة المستشفى بذلك.

كان إجراء روتينيا، لم نكن لنلوم الممرضة فهي تقوم بواجبها، ولكننا علمنا مسبقاً أن رد الإدارة سيكون بإخراجنا من المستشفى، خاصة أننا قد تعافينا، وهذا كان القرار.

خرجتُ مع أحمد من المستشفى، وسرنا في الطريق لنلاحظ على الفور تغير المباني والشوارع، بل حتى وجوه الناس، نحن في مدينة تختلف تماماً عن المدينة التي كنا فيها.

البنايات كانت مرتفعة، والشوارع منسقة، والحافلات كثيرة، يبدو أننا في مدينة حديثة غنية، أما السكان فكانوا سريعي المشي، كل يعلم وجهته، يبدو أن لكل عمل، ولكل ما يشغله، ولا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يسلمون على من يسيرون محاذاتهم، لا ألومهم فعددهم كبير.

نظرتُ إلى أحمد أسأله: إلى أين الآن؟

كان قد لفت انتباه أحمد شيء ما، اتجه إلى عمود في الطريق، كان فيه هاتف معلّق، يبدو أنه هاتف عمومي، رفع أحمد السماعة وسألني: هل ما تزالين تذكرين رقم الهاتف؟

■ ■ ■

■ الفصل الحادي عشر | أحمد

استيقظتُ أسمع كثيراً من الأصوات حولي، كان هذا مزعجاً، هناك رنين لأجهزة كثيرة في غرفة واحدة، أريد أن أخرج من هنا!

أين أنا؟

هي دقائق حتى علمتُ أنني في غرفة العناية المركزة، وأنني ما عدتُ في عُرض البحر، إنني في غرفة على اليابسة!

هالة... أين هالة؟ حاول الجميع تهدئتي وأخبروني أن هالة في غرفة مجاورة، ولكنني لم أكن لأهدأ حتى أطمئن عليها، هل هي بخير؟

أكّد لي الجميع أنها بخير، وستستعيد وعيها إن شاء الله... إذن ما تزال في غيبوبة! يجب أن أراها! خذوني إليها!

أخيراً دخلتْ ممرضة تُعْلم المرضين الآخرين أن هالة قد استيقظت، ويستطيع أن يحضر إليها.

هرعتُ أقفز من الفراش، وركضتُ إلى غرفة هالة، إنها تجلس بهدوء على الفراش، تبدو بخير فعلاً!

عانقتها بحرارة، لقد نجونا... الحمد لله.

بعد ذلك، وبعد أقل من نصف ساعة كان علينا أن نخرج من

المستشفى، فنحن لقيطان لا يملكان نقوداً.

خرجنا إلى الشارع، هذه مدينة مختلفة، تبدو حضارية أكثر من سابقتها، وأكثر من مدينتنا أيضاً، العمارة فيها أحدث، والناس أكثر تمدّناً.

هناك على الزاوية عمود يحمل هاتفاً، يبدو أنه هاتف لعموم الناس، هاتف... الرقم...

ركضتُ إلى الهاتف، وحملتُ السماعة أسأل هالة عن الرقم، فقالتْ بكل سهولة: ٣٢١٠٠٥٩.

كبستُ الأرقام وكلي أمل أن نصل إلى بر الأمان، لقد تعبنا وتهنا وخفنا بما فيه الكفاية، وآن الأوان أخيراً لأن نهدأ، وضعتُ السماعة على أذني، فسمعتُ رداً صوتياً: الرجاء إدخال البطاقة أو عشرة قروش للدقيقة... الرجاء إدخال البطاقة أو عشرة قروش للدقيقة...

نقود! ومن أين لي بالنقود؟ لقد سرقها ذاك الصبي، أقفلتُ السماعة، يبدو أن لا شيء يسير في هذه الدنيا دون نقود.

كانتْ هالة تترقب الرد على الهاتف، ولكنها تعجبتْ بعد أن أغلقتُ السماعة، سألتْ: ألا من مجيب؟

قلتُ: الآلة لا تعمل إلا بالنقود.

قالتْ: ومن أين لنا بالنقود؟ هل سنتسوّل؟

غضبتُ لذلك وقلتُ: أفضل الموت على ذلك.

سألتْ: فماذا سنفعل الآن؟ أين نذهب؟ بل وأين سننام الليلة؟

شعرتُ بثقل كبير، يتوجب عليّ أن أجيبها عن كل تلك الأسئلة، ولكن الحقيقة أنني أعجز عن إقناع نفسي أننا نستطيع التعايش في هذه الدنيا وحدنا!

أمسكتُ يد هالة وسرتُ في الطريق دون وجهة محددة، وقلتُ لها: سنتدبر الأمر. وهذا كان كل ما لدي.

سرنا في الطريق فترة طويلة، من شارع إلى شارع، من زقاق إلى زقاق، ولم تسأل هالة أي سؤال، أهي ثقة منها أنني أعرف ما أفعل؟ أهي ثقة منها أنني سأتوصل إلى حل ما؟ أم أنها الحيرة فقط من المستقبل؟

مضتْ ثلاث ساعات، وبدأتُ أشعر بخدر في قدمي، وصداع في رأسي، وجفاف في حلقي، ماذا أفعل؟ وإلى متى ستظل هالة هادئة؟

سرنا في طريق عام، إلى جانبنا تتجمع الأسواق والكثير من الناس، وكانت هناك آلة لبيع المثلجات، نظرتُ إليها، كم تبدو شهية في هذا اليوم الحار، إنني أتصبب عرقاً.

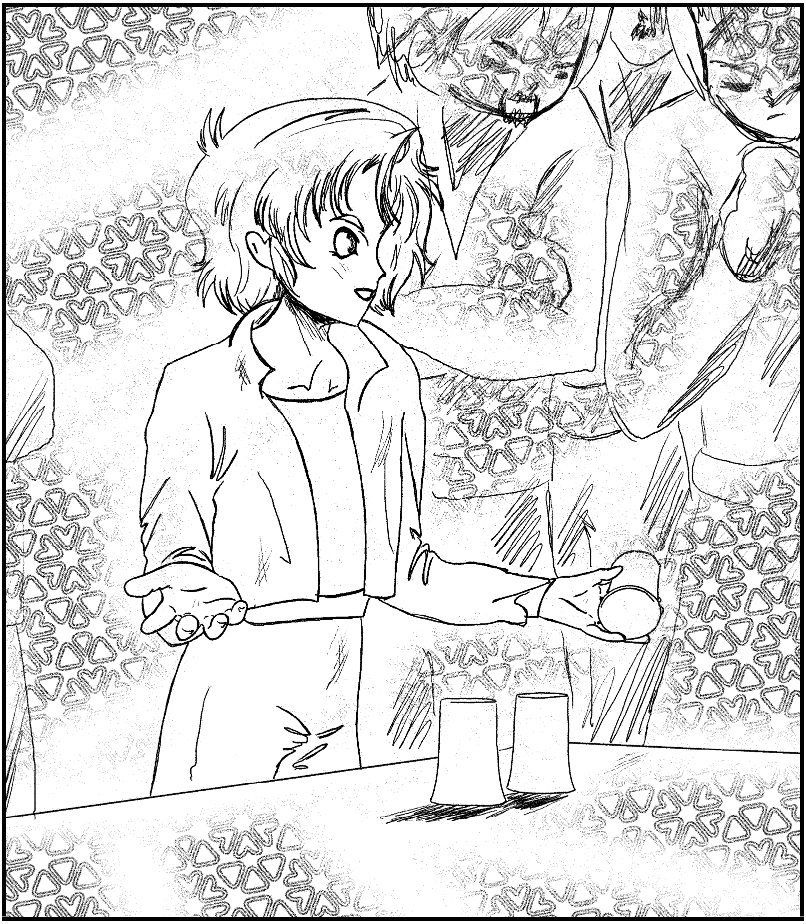
نظرتُ إلى البائع، كان يسكب عصيراً مثلجاً للناس، كم أشتهي الثلج على لساني! نظرتُ إلى الكؤوس تصطف فوق بعضها، الكؤوس! وأخيراً لمعتْ في رأسي فكرة.

اتجهتُ إلى صاحب المتجر، وطلبتُ إليه ثلاثة كؤوس فارغة، ونزعتُ زراً من قميصي وخبأته تحت إحداها، وحركتُ الكؤوس بأسرع ما أستطيع، وبذلتُ كل ما أملك، وأقصى المهارات التي أعرفها في الخداع، توقفتُ كلّي أمل ألا يحزر صاحب المتجر الكأس الصحيح، ولكنه مدّ يده ببطء وتركيز إلى الكأس الصحيح، وشعرتُ أنني فقدتُ كل أمل في أن أحسن أي شيء، وضع إصبعه على الكأس الصحيح، ولكنه قال فجأة: لحظة... إنه ليس هنا.

رفع يده بسرعة وأمسك الكأس الذي إلى جانبه وقلبه بحركة سريعة، فلم يكن الزر هناك!

حمداً لله، لقد نجحتُ، وقد فرح صاحب المتجر كثيراً، واجتمع بعض الناس حولي، فأعدتُ الكرّة، وتحمّس الناس، وحاولوا أن يحزروا مكان الزر دون فائدة.

المرة تلو المرة، والواحد تلو الآخر، ولم يحزر أحدهم الكأس الصحيح، كان الجو ممتعاً والناس سعداء.



أخـيراً بـدأ الجمـع يـضع نقـوداً علـى الطاولـة، تعـبيراً مـنهم لاستمتاعهم وحبهم لما فعلتُ.

انفضّ الناس، وتجمّعتْ بعض النقود على الطاولة، قد لا يكـون المبلغ كبيراً، ولكنها... نقود.

شكرتُ صاحب المتجر، كما قدّم إلينا كوبين من المثلجات مجاناً، وكم كانا باردين وشهيين.

جلستُ مع هالة نتناول المثلجات، كانت كل لقمة تنزل باردة في فمي، تروي ظمئي وتسكتُ جوعي، كم كنتُ بحاجة إلى شيء كهذا، كم كان ذلك منعشاً.

نظرتُ إلى هالة التي كانت سعيدة جداً بالمثلجات، حتى في منزلنا في الريف، لم تكن المثلجات طعاماً سهل المنال، ولم نكن نتناول المثلجات إلا في زيارتنا للمدينة، وكم كان ذلك نادر الحدوث.

يكاد الكأس يفرغ، أرجوك أن تبقى أكثر، يا رب بارك لنا فيه، نظرتُ إلى كأس هالة الذي كان قد فرغ، ولكن هالة كانت تحاول الحصول على أكبر قدر ممكن مما تبقى، وتلف الملعقة مراراً لتجمّع ما تستطيع.

نظرتُ إلى كأسي، ثم دفعتُه إلى هالة التي نظرتْ إليّ باستغراب، فقلتُ لها: لقد اكتفيتُ.

أشارتْ بالنفي وقالتْ: لا يمكن ذلك.

قلتُ لها: أنا على ما يرام، ولدينا نقود الآن، سنشتري شيئاً نأكله.

أخذتْ هالة المثلجات، وتناولتْ آخر ما تبقى، شعرتُ بالرضى حيث كان عليّ أن أكون على قدر عالٍ من المسؤولية في هذه اللحظات، ولكن... كم كنتُ أشتهي مزيداً من المثلجات.

■ ■ ■

■ الفصل الثاني عشر | هالة

أمي... إنني متعبة، لقد سرنا كثيراً...

حملتني أمي، وتابعتْ المسير في الأسواق وقد غفوتُ على صدرها الحنون.

أمي... أين أنتِ؟ إنني متعبة، لقد ضعنا وجعنا وسرنا طويلاً على غير هدى، أمي...

نظرتُ إلى أحمد يسير إلى جانبي، إنه يحاول كل جهده، أعلم أن ذلك فوق طاقته ومع ذلك فإنه يكابر، يكفي... هذا يكفي يا أحمد، أنتَ لستَ السبب فيما يجري.

توقف أحمد فجأة في السوق، ولمعتْ في ذهنه فكرة قام بتطبيقها على الفور، لم أكن أظن أنها ستؤدي أي غرض، ولكنها وبأعجوبة جمعتْ لنا بعض النقود، بل ووفرتْ لنا القليل من المثلجات!

جلسنا نتناول المثلجات، كم كانت شهية، تذوب بسهولة في الفم تاركة طعم الفراولة اللذيذ، حلوة وحامضة في الوقت نفسه. كنتُ حريصة على ألا ينفد الكأس بسرعة، ولكنه رغم كل المحاولات نفد! لقد كانت الكمية قليلة، ولم تُجدِ محاولاتي المتكررة للحصول على آخر قطرة في الكأس نفعاً، كم أريد كأساً آخر!

في هذه اللحظة مدّ أحمد كأسه إليّ، كان خليطاً بين الـشوكولاته والحليب، وكان أحمد قد تناول أكثر من نصفه، ولكنه توقف عن الأكل بعد أن نفد كأسي وقال لي: أنا على ما يرام، ولدينا نقود الآن، سنشتري شيئاً نأكله.

ألا يشعر بالعطش مثلي؟ ألا يشعر بالجوع مثلي؟ بلى، ولكنه يكابر، ولكن لماذا؟ ألا يزال يظن أنه السبب في رحيلنا؟ أما يزال يحمّل نفسه كامل المسؤولية؟ هل أجادل؟... لا، إنه ليس ما يريد.

أخذتُ الكأس من يده، وتناولته بشهية، رغم أن أحمد كان ما يزال يشتهي الكأس، إلا أنني على يقين أنه راضٍ بما يفعل الآن.

فرغ الكأس بسرعة كسابقه، نظرتُ إلى عربة المثلجات، ولكن أحمد أمسك بيدي، وقطع عليّ أفكاري، وسحبني معه إلى أقرب هاتف عام.

أعدنا الكرة، هذه المرة استطعنا تزويد الجهاز بالمبلغ المناسب، وأدخل أحمد الأرقام التي أحفظها، ووقفتُ إلى جانبه أستمع إلى المكالمة، رنّ الهاتف... مرة... اثنتين... ثلاثة... أجابتْ امرأة: السلام عليك، من المتكلم؟

قال أحمد بانفعال: السلام عليكِ، أنا أدعى أحمد، وقد بعثني

السيد أمين غانم لأقابل السيد شادي عبد الحفيظ.

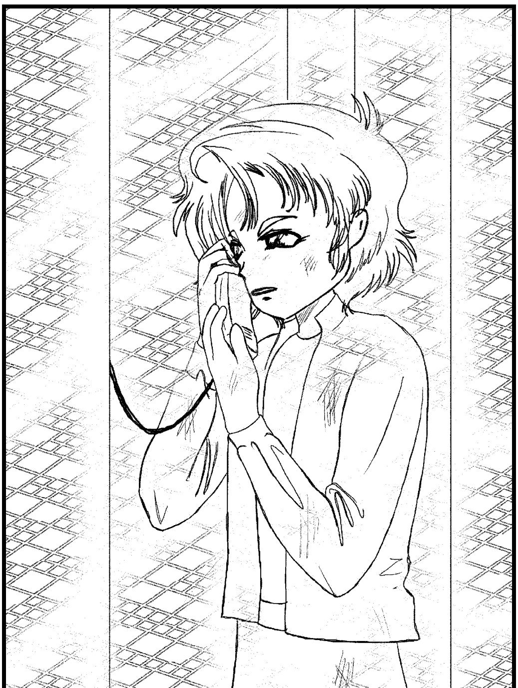
سألتْ: السيد شادي عبد الحفيظ! من يكون؟

تلعثم أحمد: السيد شادي عبد الحفيظ، أليس هذا رقم منزله؟

أجابتْ: كلا، هذا منزل مراد زاهر.

سكتَ الاثنان، فكرر أحمد في يأس: أليس هذا منزل السيد شادي عب الحفيظ؟

أكّدت المرأة: كلا، ليس منزله، يبدو أنك أخطأت الرقم.



شعرنا باليأس بعد أمل كبير، وأحلامنا طارتْ في لحظة، اعتـذر أحمد وأغلق الهاتف، وقد كنّا أصغر من أن نـدرك أننا الآن في دولـة مختلفة، وكان علينا أن نعين الرقم الفرعي للمدينة الأخرى قبل طلـب الهاتف، وحتى لو أدركنا ذلك فلم نكن على دراية أين كنّا وأين أصبحنا، وما اسم هذه المدن التي نجول فيها.

أين نذهب الآن؟ هل ضعنا ثانية؟ ماذا سنفعل؟

لا أظن أن لدى أحمد إجابة لأي من تلك الأسئلة، ولكنني لم أستطع أن أفكر وحدي، سألته: ماذا نفعل الآن؟

تردد أحمد بالإجابة قليلاً، ونظر إلى النقود في يده، ثم قال: سنشتري شيئاً نأكله.

ربما كانت المثلجات شهية، ولكنها لم تكن لتسد جوعنا، لابد أن نشتري شيئاً غنياً كالخبز مثلاً.

أمسك أحمد يدي وسرنا بين الأسواق، كانت هناك الكثير من المتاجر والمخابز، ولكن أحمداً لم يدخل أحدها، بماذا يفكر؟

التفقنا يميناً ويساراً، وبتنا نسير في زقاق بأسواق صغيرة، وتجار بسيطين، لابد أن تكون هذه الأسواق أرخص سعراً من الأخرى.

دخل أحمد مخبزاً، وقد كان واسعاً بالنسبة للمتاجر الأخرى،

وكان يبيع بعض البسكويت والحلويات إضافة إلى الخبز، سرتُ أشتم الرائحة الشهية، أي قطعة ستكون رائعة، ولكن أحمد كان ينتقي بعناية ما نريد، أظن أنه كان أحرص على النقود مني بكثير.

افترقنا، حيث كنتُ أسير بين الحلويات بينما يسير أحمد ناحية الخبز الرخيص، ربما يلخص هذا الكثير، حيث أفكر بالكماليات بينما يفكر أحمد دوماً بالأساسيات.

تجولتُ بين الرفوف، فرأيتُ امرأة ذات شعر أشقر طويل، وبشرة بيضاء ناصعة، وثياب وردية جميلة تقود كلباً أبيض كثيف الفرو، وتحمل في يدها حقيبة بنفس لون حذائها البرّاق، تبدو كمن ستحضر حفلاً مهماً. مشتْ بين الرفوف بسرعة، والتقطتْ علبة من الشوكولاته الفاخرة، وأخذتها بسرعة إلى المحاسب، لابد أنها ستقابل شخصاً مهما بالنسبة لها، ولماذا تحضر إلى مكان رخيص كهذا؟ لا تبدو من سكّان هذا الحي!

تابعتُ التجول في المتجر إلى أن وجدتُ أحمد قد حمل كيساً من الخبز الساخن، يقف على بوابة المتجر يسرح في أفكاره، قاطعته وسألته: ما الأمر؟

انتبه إليّ فجأة، فالتفتَ بسرعة وقال: لاشيء، لقد اشتريتُ

الخبز، هيا لنجد مكاناً نجلس فيه لتناوله.

ناولني أحمد رغيفاً وبدأتُ آكله بـنهم، ولم أنتظـر أن نجلـس في أي مكان، بل كنتُ قد سارعتُ في تناوله أثناء المسير، بينما كان أحمـد يبحث عن مكان مناسب لأخذ قسط من الراحة.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث عشر | أحمد

هل نسينا الرقم؟ هل نقلتُ الأرقـام بـشكل صـحيح إلى الجهـاز؟ لماذا لم نفلح؟ ما الخيارات التي تبقّت الآن؟

لم تستطع هالة أن تكتم حيرتها هذه المرة، وسألتْ: ماذا سنفعل الآن؟

ترددتُ في الإجابة، ماذا سنفعل؟ مـاذا سـنفعل؟ كـم هـو سـؤال صعب، ولكن صوتَ أمعائي الجائعة فرضتْ الإجابـة: سنـشتري شـيئاً نأكله.

كنا نسير بين أسواق متحضرة، وكنتُ على يقين أن الأسعار هنا باهظة الثمن، فكان عليّ أن أبحث عمّا هو أرخص، ويسد جوعنا.

لم أفكر في غير الخبز، أريد مخبزاً نظيفاً ورخيصاً، وبمـا أنـني أنفقتُ نقوداً في هاتف لم نستفد منه شيئاً، فعليّ أن أكون أكثـر حرصـاً على ما تبقى من مال.

أخيراً وجدتُ مخبزاً يبدو نظيفاً وجيداً في زقاق رخيص، دخلنـا وكانت الرائحة شهية جداً، مما جعل الجوع في أمعـائي يـصرخ أكثـر، أظن أن هالة كانـت تـشعر الـشيء نفـسه، ولكننـا كنّـا نفكـر بأسـلوب مختلف، فقد افترقنا في المخبـز حيـث كنـتُ أبحـث عمـا هـو رخـيص

وغنيّ، بينما كانت هالة تستمتع بمشاهدة ما هو فاخر وباهظ الثمن من الحلويات.

أخذتُ كيساً وبدأتُ أجمع فيه أرغفة من الخبز، لم يكن المال معنا كثيراً، ربما يكفي لخمسة أرغفة من النوع الرخيص فقط.

مشتْ إلى جانبي امرأة تبدو ثرية، وتربط كلبها وتسير به في المتجر بزهو، وقفتْ بالقرب مني وبدأ كلبها ينبح على الطعام، إنه يعرف طعامه، فقد كان ينبح لها لتشتري لها طعاماً مخصصاً للكلاب.

يا له من كلب محظوظ، يحصل على ما يشتهي، ولديه من يرعاه، ولابد أن له منزلاً جميلاً يؤويه، وفراشاً ناعماً ينام عليه.

حملتْ المرأة أربعة علب ووضعتها في سلّة صغيرة، فرح الكلب بها كثيراً.

لماذا لا نستطيع أن نشتري ما نشتهي؟ لماذا لا نملك من يعتني بنا؟ لماذا لا نملك منزلاً أو فراشاً ننام عليه؟ هذا ليس عدلاً!

وبدون أن أشعر بما أفعل، وقفتُ قريباً من المرأة وسألتها: هل لكِ سيدتي أن تشتري لي طعاماً كما تشترين لكلبك؟

جفلت المرأة، وحدّقتْ بي طويلاً، ثم قالتْ: هل تسخر من عنايتي بكلبي الجميل؟

أجبتُ: لا، فقد كان لدي كلب وفيّ، وأفهم تماماً معزتك له، ولكنني فقدتُه، كما فقدتُ الكثير من الأمور الأخرى.

أصبحتْ ملامحها أكثر لطفاً، وابتعدتْ عني مع كلبها المدلل، فتابعتُ شراء الخبز الرخيص، وحملته إلى المحاسب.

هناك وضعتْ المرأة علبة فاخرة من الشوكولاته على طاولة المحاسب، فأبعد خبزي، وحاسبها على العلبة قبلي، وابتسم لها مرحباً بزيارتها مخبزه المتواضع، فناولته النقود، وناولتني العلبة قائلة: هذه لك يا صغيري.

لا أصدق ما أرى! لم أكن لأحصل على مثل هذه الشوكولاتة الفاخرة في حياتي! هذه تكلف الكثير!

غادرتْ المرأة المخبز على الفور، وتابع صاحب المتجر محاسبتي على الخبز، بينما كنت أحدق في العلبة بين يدي، يا إلهي إنها لي! أستطيع أن آكل منها ما يحلو لي!

نهرني صاحب المتجر أن أدفع له ثمن الخبز على الفور، فوضعتُ علبة الشوكولاتة في سترتي، ودفعتُ أجر الخبز وأسرعتُ إلى الباب أفكر فيما أحمل.

لدي خبز ساخن لنأكل، وعلبة من الشوكولاته الفاخرة، يا

إلهـي، شـكراً لـك علـى فـضلك ونعمـك، سمعـتُ صـوتَ هالـة يقـاطع أفكاري: ما الأمر؟

قلتُ: لاشيء، لقد اشتريتُ الخبز، هيا لنجد مكاناً نجلس فيـه لتناوله.

أعطيتُها رغيفاً فبدأت بتناوله علـى الفـور، وسـرنا في الطرقـات نبحث عن مكان عام نجلس فيه. رغم أن تجربتنا الأخيرة في المتنزهات كانت سيئة، إلا أنني أشعر أن هذه المدينة آمن من سابقتها، ونـستطيع أن نجلس بهدوء في أي مكان.

وصـلنا إلى حديقـة صـغيرة بـين شـوارع المدينـة، وجلـسنا علـى كرسي خشبي بين نوافير جميلة، ناولـتُ هالـة رغيفـاً آخـر، ولكنهـا قالتْ: لقد شبعتُ، تناول أنت شيئاً.

كدتُ أنسى أن آكل، كدتُ أنسى الجوع، كدتُ أنسى أنـني أسـير منذ ساعاتٍ دون هدى، وأنني حصلتُ على النقود بصعوبة، ولكـنني لم أستطع أن أنـسى لحظـة أنـني أحمـل علبـة فـاخرة مـن الـشوكولاتة في سترتي.

أكلتُ الرغيف، وعددتُ ما تبقى لنـا، إننـا نملـك ثلاثـة أرغفـة فقط، قد تكفي يوماً واحداً، فمـاذا نفعـل بعـد؟ هـل أسـتطيع أن ألعـب

بالكؤوس كل مرة؟ هل سينجح ذلك في أي مكان؟

بدأت الشمس تغرب، وعلينا أن نجد مكاناً ننام فيه، ولكنني ما عدتُ قادراً على التفكير، هناك شيء ثمين في سترتي! ماذا أفعل؟ هل أخبر هالة؟ ستكون سعيدة جداً لتناول شيء كهذا، ولكنه لا يُشبع.

نظرتُ إلى أرغفة الخبز، سرحتُ بها طويلاً، وأخيراً نهضتُ بحزم، وعزمتُ أمري، وأمسكتُ بيد هالة، وعدتُ إلى المخبز.

طلبتُ إلى هالة أن تنتظر عند الباب، بينما دخلتُ ووضعتُ علبة الشوكولاته على طاولة المحاسبة.

ما يزال صاحب المتجر يذكرني، سأل بصوت خشن: ماذا تريد؟

أجبتُ: أريد خبزاً بثمنها.

نظر صاحب المتجر إلى العلبة، إنها ما تزال مقفلة، أكّدتُ: لم أفتحها بعد، أريد أن أستبدل بثمنها خبزاً.

أمسك العلبة وقلّبها جيداً، وهزّها ليسمع قطع الشوكولاته تتحرك في الداخل، ومع ذلك وضعها على الطاولة أمامي وقال: لا، البضاعة لا ترد ولا تستبدل.

سألتُ: لماذا؟ لم يمض على شرائها أكثر من نصف ساعة! لقد اشترتها السيدة أمامك.

أشاح التاجر برأسه وقال معانداً: هـذه ليـست مـن عنـدي، لقـد اشتريتها من مكان آخر.

كيف له أن ينسى! قلتُ: بل اشـترتها الـسيدة مـن عنـدك قبـل نصف ساعة فقط، أريد أن أحصل على الخبز بدلاً منها، هذه لا تُسكتُ جوعنا.

تجاهل التاجر ما أقول ونظـر إلـيّ بـتمعّن وقـال: كيـف لـصبي مثلك أن يحصل على مثل هذه العلبة الثمينة؟ هل سرقتها؟

جفلتُ، هـل سيطلب الـشرطة؟ هـل سيتهمني بالـسرقة بهـذه البساطة؟ وأي دليل أملك؟

أمـسكتُ علبـة الـشوكولاته بـسرعة، ولكـن التـاجر وضـع يـده العريضة عليها بعنف ووبخني قائلاً: اخرج مـن هنـا أيهـا اللـص وإلا استدعيتُ الشرطة!

قلتُ بما تبقى لدي من إصرار: هذه لي، لقد اشترتها السيدة من أجلي!

صرخ التاجر في وجهي: اخرج من مخبزي في الحال!

التفت جميع مـن في المخبـز إلينـا، فاضـطررتُ أن أتـرك العلبـة وأخرج مسرعاً من المتجر، بينما كان التاجر يصرخ: لص! لص!

أمسكتُ يد هالة وركضتُ بها سريعاً مبتعداً عن المخبز، لقد أضعتُ الشوكولاته، وأضعتُ نقودها، وأضعتُ قوتنا...

■ ■ ■

■ الفصل الرابع عشر | هالة

رائحة الخبز كانت شهية، تماماً كرائحة الخبز الذي تخبزه أمي، ولكن خبز أمي كان أكبر وأسخن، أذكر كيف كان يذوب في فمي بين الجبنة والمربى، البيض والزعتر، الفطر والبطاطا، كم كان طعام والدتي شهياً.

عدنا مجدداً إلى المخبز، كان لدى أحمد ما يفكر فيه، إنه بالكاد تناول قطعته من الخبز!

وقفتُ على الباب، ولم أفهم شيئاً مما جرى سوى أن صاحب المتجر صرخ بأعلى صوته: لص! لص! هل كان يعني أحمد؟

أمسك أحمد بيدي وركضنا مبتعدين عن المخبز، ركضنا كثيراً إلى أن شعرتُ أننا قد استهلكنا الخبز الذي أكلناه! فطلبتُ من أحمد أن نستريح في مكان ما، فقد بدأت الشمس تغرب، وعلينا أن نجد مكاناً ملائماً ننام فيه.

كأنني ذكَرتُ أحمد بحقيقة لابد منها، يجب أن ننام، ولكن أين؟

ما الخيارات المتوفرة؟ نحن لا نملك نقوداً كافية لأي نُزُل، علينا أن نجد منتزهاً أو حديقة صغيرة ننام فيها.

سرنا قرب حديقة وسط المدينة، كان الحارس يقفل البوابة الحديدية معلناً نهاية دوامه الرسمي، فذهبنا إلى حديقة أخرى، فكانت قد أُقفلتْ! أين نذهب؟

سرنا في السوق الذي بدأت متاجره تقفل الواحد تلو الآخر، لم يعد أحد يسير في الشارع، بات الشارع مظلماً ومخيفاً.

سألتُ أحمد: كم هي الساعة الآن؟

أجاب: أظن أنني لمحتُ ساعة داخل متجر تأشر عقاربها على الواحدة بعد منتصف الليل، وهذا قبل ما يقارب النصف ساعة.

سألتُ: أليس من مكان ننام فيه؟ أنا متعبة.

أجاب: يبدو أننا سننام في أي زاوية في هذا الشارع.

زاوية في الشارع! هذا خطير ومُضر! لسنا نملك أي لحاف نقي به أنفسنا من البرد، إنه انتحار!

نظر أحمد إليّ وقال: أعلم أنه ليس بخيار جيد، ولكنني أخشى أننا لا نملك خياراً آخر.

سألتُ: إلى متى ستظل حالنا هكذا؟

كم كان سؤالي صعباً وأنانياً، فحال أحمد هو من حالي، وهو يحاول ما في وسعه بينما أسير إلى جانبه أعتمد عليه في كل شيء،

ولكنه قال: لقد نمتِ في القبو يوماً، وقد كان مظلماً ومخيفاً، كما أنه كان بارداً ودون لحاف، ماذا قلتِ لي يومها؟

تذكرتُ تلك الأيام التي باتت كالحلم، لم أعد أعي كيف كنا نعيش فيها، ولكنني سرحتُ بخيالي بعيداً وأجبتُ: قلتُ لك أن الظلام لم يعد مخيفاً، وأن القبو ما هو إلى حجرة تحوي بعض المؤن.

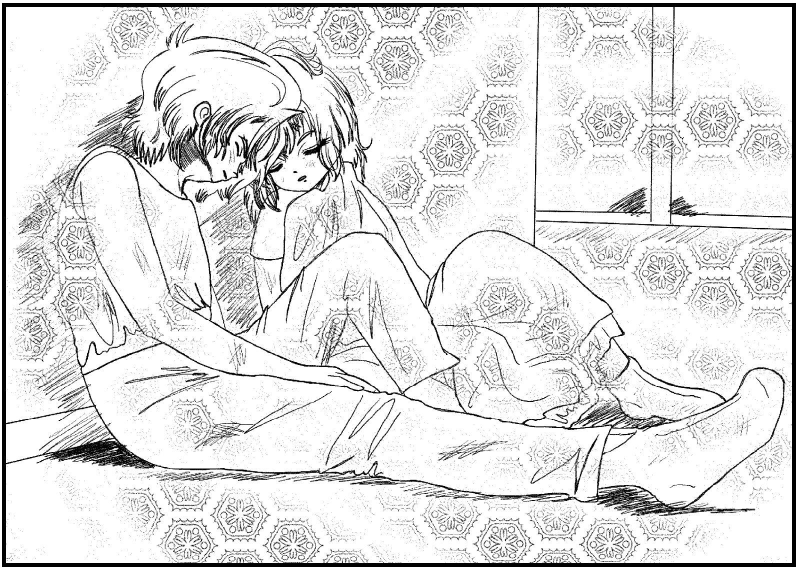
فقال أحمد: أريد أن أعرف اليوم رأيك عن زقاق المدينة في منتصف الليل.

ابتسمتُ، لقد كنتُ قوية جداً، أين تنهار هذه القوة اليوم؟ هل نسيتُ أن الله ساعدنا في المحن التي تعرضنا إليها؟ هل نسيتُ أن الله بعث إلينا من يساعدنا وقت الشدة؟ إنه نفسه هنا، في الزقاق، في منتصف الليل، لابد أن يساعدنا.

اتجهنا إلى زقاق جانبي، كان الأنظف، وجلسنا نرتكز على الحائط، شعرتُ وكأنني لم أجلس منذ أعوام، وقدمي كانت متورّمة. نزعتُ حذائي، فنزع أحمد سترته ليغطيني بها، أعلم أنه لن يقبل أن أردها إليه، فهو أيضاً بحاجة إليها مثلي، ولكنني سألته ما هو أهم: أحمد... هل سرقتَ شيئاً من المخبز اليوم؟

أجاب بكل إصرار: أبداً، لم ولن أفعل أبداً.

ارتاح بالي، فكل أملي اليوم أن الله سيساعدنا، ولكي يساعدنا على أحمد ألا يكون قد أغضبه في أي عمل، أغمضتُ عيني في حراسة الله وحده.



■ ■ ■

■ الفصل الخامس عشر | أحمد

تعبتُ من المشي، تعبتُ من التفكير، أريد أن أنام، لمحتُ الساعة في إحدى المتاجر، إنها الواحدة بعد منتصف الليل، وقد بدأت الأسواق بالإقفال الواحد تلو الآخر، ليس من أحد حولنا الآن، نحن نسير وحدنا في طريق مظلم!

هذا ليس مريحاً، من الخطر أن ننام في العراء، ماذا أفعل؟ ولكن هالة كانتْ قلقة أيضاً، وباتتْ تستفسر عمّا نفعل أكثر فأكثر، بم أجيب؟ أنني طفل ضائع لا يعرف ما يفعل، ألا تكون الحقيقة أفضل من ذلك؟

حاولتُ أن أسرّي عنها، وأخيراً اضطررنا للجلوس في زقاق مظلم، وناولتها معطفي لتتقي به نفسها برد الليل، وقد نامت على الفور.

في صباح اليوم التالي، بدأت المتاجر تفتح مبكراً، واستيقظنا على أصوات التجار يحيّون بعضهم، ويبدؤون بترتيب بضاعتهم.

استيقظتْ هالة أيضاً، ونهضنا لنعاود السير بين المتاجر، ماذا عسانا أن نفعل، وما هو مخططنا؟

لدينا الآن ثلاثة أرغفة من الخبز، وعليّ أن أجلب بعض النقود، ولم يخطر ببالي أسلوب سوى الكؤوس.

وضعتُ الكؤوس إلى جانب متجر ألعاب بسيط، وبدأت أحركها وأجذب بعض المتفرجين، اجتمع حشد لا بأس به من الناس، ولكن لم يضع أحد منهم قرشاً واحداً، كلهم كانوا يحاولون بجد أن يكشفوا الكأس المطلوب، ولكنني كنتُ على ما يرام.

إلى أن وقف شاب متبجح، وضع على الطاولة ورقة من فئة الخمسين، إنها تساوي الكثير، قد تؤمن لنا مئة رغيف! نظرتُ إليه فقال: أتحدى بهذه.

صفق الجميع، وكان عليّ أن أكون الأفضل، حرّكتُ الكؤوس بأقصى سرعة، واستخدمتُ كل مهارة تعلمتها في تضليل الشاب، وتوقفتُ أسمع دقات قلبي، وأشعر بقطرات العرق تتصبب من على جبيني، أريد النقود أكثر من أي وقت آخر.

ظل الشاب ينظر في الكؤوس، طال الانتظار، وبدأ الناس بالهتاف، ولكنه لم يكن انتظار الحيرة، إنما حرّك يده بسرعة ورفع الكأس الصحيح على الفور! إنه شديد الملاحظة.

هتف الجميع سعداء، وقبض الشاب على ورقة الخمسين، وضعها في جيبه، ومشى بها بعيداً...

انفضّ الناس، واقتربتْ هالة مني دون أن تنطق بأية كلمة، لم

أحصل على قرش واحد، هذا الشاب يمتلك قوة ملاحظة شديدة كتلك التي تملكها هالة، كم شعرتُ أنني أكره هذه الصفة اليوم.

عاودنا السير إلى أن جعنا، لم أعد أعرف إلى أين نسير، أو إلى متى، وماذا نريد، ولكن الجوع الآن كان الأهم.

جلسنا في حديقة عامة، أخرجتُ رغيفاً من الخبز ناولته لهالة، كان الخبز قد برد وجفّتْ أطرافه عن الأمس، ولكنه يبقى غذاءنا الوحيد، وهو يفي بالغرض.

تناولتْ هالة الرغيف، بينما احتفظتُ بالاثنين الباقيين للحاجة، طلبتْ إليّ هالة أن آكل، ولكنني أكّدتُ لها أنني لستُ جائعاً، وسآكل بعد ساعة أو ساعتين، ولكنني لم أكن أنوي ذلك، كان عليّ أن أحتفظ بالخبز إلى أن أجلب المال.

شادي... شادي عبد الحفيظ، هذا الاسم الوحيد الذي نملكه، هو الشخص الوحيد الذي نستطيع الاعتماد عليه.

قاطعتني هالة قائلة: أحمد، ألا يستطيع أحدهم توظيفنا؟

سألتها: في أي عمل؟

قالتْ: أي عمل، لقد عملنا كثيراً في المنزل، أظن أننا نجيد بعض الأعمال.

فكرتُ، كل الأعمال التي عملناها في منزلنا كانتْ أعمالاً مرهقة لا تحتاج إلى مهارة، وكلها تتعلق بالزراعة والرعي، لا أرى حولنا مزارعاً أو راعياً واحداً، سألتُ هالة: أي عمل نجيد في مثل هذا السوق؟

فكرتْ قليلاً ثم قالتْ: الطبخ مثلاً.

قلتُ: الأطعمة هنا مختلفة عن طعام مدينتنا، ولن يوظف أحد صِبية ضالين.

سألتْ: فماذا نفعل إذن؟

أجبتُ: بصراحة علينا أن نكون أكثر صراحة مع أنفسنا، في سن كهذا علينا أن نجد من يعتني بنا، ولا نملك اليوم سوى اسم واحد هو شادي عبد الحفيظ.

قالتْ: أمازلتَ تبحث عنه؟ إنه ليس هنا.

قلتُ: أعرف، ولكنني أريد أن أذهب إليه.

قالتْ: أوَنعود إلى تلك المدينة التعيسة! لا أريد ذلك.

قلتُ: وهل لديك خيار آخر؟

فكرتْ هالة قليلاً ثم قالتْ: لابد أن يكون هناك أناس طيبون هنا، سيعتنون بنا.

قلتُ: لن أرفع لافتة أطلب فيها أن يكفلنا أحدهم.

سكتتْ هالة ففهمتُ ما كانت تقصد، إنها تقصد ملجأ الأيتام، ولكننا لسنا إلا طفلين هاربين، ولا أريد أن أفكر في فرصة أن يعيدنا أحدهم إلى المنزل!

نظرتُ إلى الخبز في سترتي، لم يتبق سوى رغيفين، فرضختُ لفكرة الملجأ ولو إلى حين، وسنؤلف أي حكاية مقنعة.

سألنا عن الميتم إلى أن وصلنا، إنه مبني من الطوب القديم، ولا يبدو حيوياً على الإطلاق، دققتُ الجرس فخرجتْ إليّ سيدة في الأربعين، ترتدي ثياب عاملة، سألتنا من نكون.

أجبتها: إننا طفلين يتيمين.

أدخلتنا إلى الداخل حيث قامتْ بإيصالنا إلى مديرة الملجأ، كانت غرفتها مزركشة على الطراز القديم، ولم تكن فاخرة، بينما كانت صاحبة الملجأ تجلس خلف الطاولة المليئة بالأوراق، ترتدي نظارات عريضة، وتقضم علكة في فمها.

حدّقتْ بنا طويلاً، فقالتْ الخادمة: إنهما يتيمان.

ابتسمتْ قالتْ: أجل، ليسا أول أطفال يطرقون الباب ليهربوا من أهاليهم.

تفاجأتُ لما قالتْ، هل يُعقل أنهم كثيراً ما يستقبلون أطفالاً

هاربين! ولكنني قلتُ على الفور: لقد كان هناك حادث، توفي فيه والدينا.

ظل الصمتُ مطبقاً، وبقيتْ تحدق فينا، تنظر تارة إليّ وتارة إلى هالة من خلال نظاراتها العريضة، نهضتْ وبدأتْ تسير في الغرفة ثم قالتْ: حسناً، ولكن اعلما أن هذا الملجأ يفرق في الغرف بين البنات والصبية، لا تستطيعان رؤية بعضكما إلا ساعة واحدة في النهار.

أمسكتْ هالة يدي وقالتْ: كلا شكراً، سنتدبر أمرنا.

وشدتني إلى خارج الملجأ، بينما كنتُ أعرف أن هذا كان مجرد اختبار سخيف من صاحبة الملجأ، إلا أن هالة لم تستطع تحمل الفكرة.

هالة... لا تظني أبداً أنني سأقبل فكرة كهذه، لقد قطعتُ عهداً أن أكون إلى جانبك، ولن أخذلك أبداً.

■ ■ ■

■ الفصل السادس عشر | هالة

أمي... إنني مرهقة وأنام على الأرض

أمي... ألن تحمليني إلى فراشي؟

أمي... ألا ترين ما حلّ بنا؟

أمي... أمي... هل قلتِ شيئاً؟

تردد صداها في أذني: هالة... هالة... توكلي على الله، والزمي أحمد.

أيقظني أحمد، كنا ما نزال في الزقاق بين الأسواق، لقد قضينا الليلة هنا.

أعدتُ المعطف إلى أحمد، بينما ناولني رغيف خبز أتناوله، سألته إذا ما كان سيفطر، ولكنه أجاب أنه على ما يرام، وسيأكل عندما يجوع.

لا أصدق أنه ليس جائعاً، إن الجوع يعتصرني، هل يخشى ألا نحصل على خبز مرة أخرى؟

ربما كان قلقه في محله، فعندما حاول جمع النقود ثانية بلعبة العلب الثلاث لم يفلح، وانفضّ الناس من حوله، وها نحن وحيدين من جديد.

أليس من مكان يؤوينا؟ ألا يوجد مكان مخصص لأمثالنا من الأطفال الضالّين؟ فهم أحمد ما أقصد، فسرنا إلى أن وجدنا بناية مخصصة للأيتام.

لم نكن أيتاماً بالمعنى الحرفي، ولكنني أعتبر نفسي يتيمة فعلاً، ولكن لم تنطلِ أي رواية على صاحبة الميتم، وأرادتْ أن تفصلني عن أحمد في غرف مستقلة، وهذا ما لم أكن لأقبله على الإطلاق.

هرعتُ خارج الميتم أجر أحمد معي، أعلم تماماً أنها لم تعنِ ما تقول، ولكن الفكرة كانت مخيفة جداً بالنسبة لي.

الانفصال عن أحمد الآن أشبه بالموت...

عاودنا المسير إلى غير هدى، من شارع إلى شارع، ومن حديقة إلى أخرى، ويمضي اليوم ليحل الليل دون أن نعرف ما نفعل.

علينا أن نجد مكاناً ننام فيه، دخلنا بناية قيد الإنشاء، كان العمل فيها قد توقف عندما أظلمت السماء، تفحصنا المكان بهدوء حيث كان فارغاً وآمنا، جلسنا في إحدى الزوايا، وركزنا خشبة هشة أمام أقدامنا، علّها تحمينا من نسمات الليل الباردة.

ناولني أحمد رغيفاً لآكل، ولكنني أبيتُ أن أتناوله إذا لم يأكل أحمد معي، رغم محاولاته إقناعي إلا أنني أكّدتُ له أنني لن آكل ما لم

يأكل، فقسم الرغيف قسمين متساويين، وبدأنا نأكل سوية.

أنهيتُ حصتي من الخبز، بينما كان أحمد ما يزال يأكل حصته ببطء، كنتُ ما أزال جائعة، فلم أتناول سوى رغيف واحد خلال اليوم.

كان أحمد يعرف أنني لم أشبع بنصف رغيف، فقام بتقسيم حصته إلى نصفين، وناولني نصفاً لم أستطع مقاومته.

لم يأكل أحمد سوى ربع رغيف منذ الصباح!

وفي اليوم التالي عاودنا المسير، وبعد انقضاء أربع ساعات كان علينا أن نأكل شيئاً.

لاحظتُ ظاهرة غريبة في هذه المدينة، بعض الناس لا يحملون النقود، إنهم يشترون البضاعة عن طريق كرتٍ بلاستيكي صغير! كم هو جميل هذا الاختراع، فهو ليس بحاجة إلى المال ليقتني ما يريد، هل هو أمير أم وزير؟

يبدو أن هذا الكرت قد أثار فضول أحمد أيضاً، فكان يحدق في كل من يستخدم هذا الكرت، وقد رأينا هذه الظاهرة إلى الآن أكثر من عشر مرات، أريد واحداً!

سرنا ثانية في الطريق، ووصلنا إلى الشاطئ، جلسنا قليلاً ولم

نعد نتحدث كثيراً إلى بعضنا، ربما هو القلق من جهل كل منا بمستقبلنا، أو أنها خطة للحفاظ على أكبر قدر من الطاقة لدينا.

حل الغروب، وكان منظر الشمس تلامس المياه جميلاً، لولا الجوع يعصر معدتي، والعطش في حلقي، هل هذا بحر أم نهر؟ هل نستطيع أن نشرب ماءه؟

سألتُ أحمد، فنهض إلى المياه، وتذوق رشفة منها، ولكنها كانت مالحة، هذا ليس نهراً، ولا نستطيع أن نشرب منه.

عاودنا المسير إلى إحدى الحدائق قبل أن تقفل، واستطعنا هناك أن نشرب من مياه نافورة صغيرة، شربتُ حتى ارتويت، بل ملأتُ بطني بالمياه حتى لا تطلب الطعام، ثم وضعتُ رأسي تحت الماء لأغسل شعري.

جلسنا قرب النافورة نعلم أنها دقائق ويطلب الحارس إلينا أن نغادر ليقفل الحديقة، ولكن أحمد لمح كرتاً صغيراً بالقرب من النافورة، حمله فإذا به الكرتُ السحري الذي يستخدمه الناس في هذه المدينة لشراء البضاعة دون نقود.

فرحتُ به كثيراً، كنتُ على يقين أنه الفرج، الآن نستطيع أن نحصل على ما نريد، ولكن... هل يحق لنا أن نستخدمه؟

كان أحمد يفكر في الأمر نفسه، التفت إليّ وسألني: هل أضاعه أحد؟

أجبتُ: ربما، ولكنه ليس نقوداً.

قال أحمد: ماذا تقصدين؟

أجبتُ: أعني أنني أظن أن لا سرقة نرتكبها في استخدامه.

نظر أحمد إلى الكرت وقال: فما هو إذن؟

أجبتُ: الكرتُ السحري الذي نحصل فيه على ما نريد، لابد أنه كرت مميز يحصل عليه الناس المميزون.

قال أحمد: هل تعنين أننا نستطيع استخدامه؟

قلتُ: بكل تأكيد.

أنا نفسي لم أكن أدري مدى صحة ما أقول، ولكنني كنتُ على يقين من أمر واحد، نحن طفلين تائهين بحاجة إلى الطعام.

لم يجادل، واتجه أحمد إلى أول مجمّع وجده في الطريق، دخلنا فكان المجمّع كبيراً وبرّاقاً، وكان الجو دافئاً في الداخل على عكس الغيوم المخيفة التي تنبئ بعاصفة قادمة في الخارج.

لم يعترض أحدهم طريقنا علماً بأن ثيابنا لم تكن أنيقة، وكانت متسخة قليلاً من النوم في الطرقات، وأظن أن كلانا كان بحاجة إلى حمّام ساخن.

كان كل ما يُعرض هنا جميلاً، كل شيء متوفر إلى أدق التفاصيل، هل نستطيع أن نشتري ما يحلو لنا؟

اتجهنا فوراً إلى زاوية المأكولات، كان كل شيء مقسماً، الفواكه والخضار من ناحية، المثلجات من ناحية، المعجنات، الحلويات، العصائر، الأجبان، لم أكن أتخيل أن كل هذه المنتجات توجد في مكان واحد!

سحبني أحمد معه إلى المعجنات، حملنا أرغفة عريضة طرية محشية بالزبيب، كما اخترنا بعض الفطائر، وعلبة عصير طبيعي.

هل نبالغ؟ أم هل نسينا أشكال الطعام المعهودة؟

نظرتُ إلى أحمد ففهم ما أفكر فيه، علينا أن نتأكد من أننا نستطيع شراء هذا الطعام بتلك البطاقة، وأننا بذلك لا نحلم.

سرنا إلى المحاسب، كان هناك عدد كبير من المحاسبين يصطفون خلف آلاتهم المصرفية، اتجهنا إلى أحدهم، وهناك وجدنا علباً للشوكولاته الفاخرة، فتذكرتُ على الفور المرأة الغنية مع كلبها، ولدهشتي فقد رأيتُ أحمد يضع يده على النوع ذاته الذي اختارته تلك المرأة، حمله ووضعه على طاولة الحساب دون أن يستشيرني، ولكنني كنتُ أشتهيها فعلاً، فمن لا يفعل؟

ولكن لماذا اختار هذا النوع بالذات؟ لربما كان قد شاهد المرأة نفسها تشتري الحلوى أمامه، لا أظن أن هناك تفسيراً آخر.

الآن حانت اللحظة الحاسمة، وضعنا ما انتقيناه من فطائر إلى جانب الشوكولاته، ولم أعد أشعر بشيء آخر حولي سوى المحاسب يحمل كل قطعة على حدة، يضعها أمام آلة غريبة، ويحسب في النهاية المبلغ المطلوب، خمسة دنانير.

رفع أحمد البطاقة، وكنتُ ألمح يده ترتجف، إنه لا يدري ما يفعل، هل ما يقوم به صحيح؟ هل سينجح ما نفعل؟ هل هذا كل ما كنا بحاجة إليه؟ هل حللنا مشاكلنا؟

أمسك المحاسب الكرت بكل بساطة، ومرره على جهاز خاص، وكان هذا كل شيء!

أعاد الكرت إلى أحمد، ووضع ما اشترينا في كيس، و... بابتسامة قال: شكراً لزيارتنا.

■ ■ ■

■ الفصل السابع عشر | أحمد

بات حساب الأرغفة عملية معقدة بالنسبة لي، ليس لعددها الكبير، بل لأنصافها المتبقية.

وماذا عن الماء؟

كان خيارنا الوحيد الحدائق العامة ونوافيرها الجميلة، ذهبنا إلى إحداها وحرصنا على ملئ معدتنا بالماء علّها لا تطلب الطعام.

هناك كانت تنتظرنا مخلّصتنا، رغم صغر حجمها إلا أن فعلها كان أكبر من الخيال، إنها البطاقة السحرية التي يستخدمها مواطنوا هذه المدينة لقضاء حوائجهم المختلفة، إنها الطعام والشراب والمأوى في قطعة لا تتجاوز بضعة سنتيمترات، كانت بالقرب من النافورة، سقطت من أحدهم لنحصل عليها، هبة من الله لطفلين تائهين.

هل تحقّ لنا فعلاً أم أن الجوع كان أقوى؟ هل هي سرقة أم أنها هبة من الله؟ هل نتطفل على ممتلكات أحدهم أم أنها بطاقة سحرية لا تنضب؟ لستُ أدري، ولكن ما الخيار الآخر الذي بين يديّ؟

هذه البطاقة ليست نقوداً، وهي لا تنتهي، رأيتُ الناس يستخدمونها في كل مكان أكثر من مرة، إنها امتياز للبعض على الآخر، ألا يحق لنا أن نحصل على ما يساعدنا؟

يا إلهي، لدي أخت جائعة، وبطن خاو، وجسد يرتعد برداً، اهدني إلى الصواب.

بعد نقاش قصير مع هالة قررنا أن نجرب البطاقة، واتجهنا إلى مجمّع قريب يحوي كل أنواع المنتجات، وكل ما يحتاجه أي مواطن في هذه المدينة.

كان مزدحماً في كل زاوية، ومقسّماً بعناية بين الأدوات، وكان هدفنا زاوية المأكولات.

اشتهينا كل شيء، ولكن ما من شيء يؤكد لنا أن البطاقة ستعمل على أكمل وجه، علينا ألا نبالغ في استخدامها خاصة في المرة الأولى، حاولنا انتقاء بعض الفطائر الشهية، والخبز الطازج الجيد الصنع، واكتفينا بقدر بسيط اتجهنا به إلى المحاسب، وهناك وقعتْ عيني على علبة الشوكولاته الفاخرة، إنها ذاتها التي فقدتها في المخبز بغباء، ولم تتذوق منها هالة قطعة واحدة، حان الوقت لأكفر عن خطئي وأعوض هالة عن سوء تدبيري للأمور.

تناولتُ العلبة وأضفتها إلى سائر ما اشترينا، وحانت اللحظة الحاسمة، بدأ المحاسب يجمع ما اشترينا، حسب الحساب كاملاً فكان خمسة دنانير.

لم أكن على دراية واسعة بالعملـة في هـذه المدينـة، ولكـن يبـدو الرقم كبيراً بالنسبة لي، هل ستنجح البطاقة في تحقيق المعجزات؟ هل سـنخرج مـن المجمّـع محملـين بمـا اشـترينا؟ إن قلـبي يـدق بـشدة، أخرجتُ البطاقة وناولتها للمحاسب، الذي استلمها مني بكـل بـساطة ومررها على جهاز خاص، وكان هذا كل شيء. أعاد البطاقة إلي ووضع البضاعة في كيس وقال بلطف: شكراً لزيارتنا.

هل هذا كل شيء؟ هـل نملـك كـل هـذا الطعـام؟ هـل حللنـا كـل مـشاكلنا فعـلاً بهـذه البطاقـة الـسحرية؟ علـيّ أن أحـرص جـداً علـى المحافظة عليها، إنها كنز دون شك، الحمد لله.

حملتُ الكيس وخرجنا من المجمع، ما إن تنفسنا الهواء الطلـق حتى قفزتُ مع هالة فرحاً، لدينا طعام شهي! لدينا طعـام شـهي! لـن نجوع الليلة.

جلسنا في ساحة المجمع رغم أن الطقـس كـان ينبـئ بـالمطر، ولم نصبر حتى فتحنا الكيس، وأخرجنا الفطائر، والتهمناها بنهم، كانت فطائر محشوة بما لذّ وطاب، لم أتـذوق مثلـها منـذ فـترة طويلـة، كمـا أنني لم أضطر لتقسيم الطعام، فكان هناك ما يكفي، كما أن البطاقـة مـا تزال في جيبي، نحن في أمان.

شبعنا من الفطائر وحان وقتُ الشوكولاته، أخرجتها من الكيس وقلتُ لهالة: لقد أعطتني سيدة مثل هذه العلبة قبل أيام، ولكنني فقدتها قبل أن تعلمي بها، لذلك أردتُ أن أعوضك عنها بأخرى.

أخيراً أسقطتُ الحمل الثقيل عن ظهري، وناولتُ هالة علبة الشوكولاته، فابتسمتْ وقالتْ: هل كانت السيدة تقود كلباً لها؟

قلتُ: كيف عرفتِ ذلك؟

فتحتْ هالة العلبة وابتسامة عريضة ترتسم على شفتها، هل كانت تعلم كل ما جرى؟

كان منظر الشوكولاته جذّاباً جداً، إنها ولا شك فاخرة، حملتْ هالة قطعة منها لتتذوقها، ولكن وقبل أن تضع القطعة في فهما اقتربت منّا مجموعة من الشرطة قاموا بالإمساك بنا بعنف، وضعوا أيديهم في جيوبنا، وبسهولة عثروا على البطاقة السحرية.

رفع الشرطي البطاقة في وجهي وقال: من أين سرقتَ هذه؟

أجبتُ على الفور: لقد وجدتُها في الحديقة على الأرض، لم أسرقها من أحدهم!

ولكنه لم يكلّف نفسه عناء الاستماع، وسحبني من ذراعي بقوة إلى طرف الشارع حيث تركوا السيارة هناك، وأدخلني عُنوة، بينما لحقتْ هالة بنا تحاول أن تثنيهم عنّي دون فائدة.

أدخلني الشرطي سيارته بعنف، كنتُ أردد: لا أعرف صاحبها! لقد كانت على الأرض! لم أسرق شيئاً!

ولكن دون فائدة، بدأتْ السماء تمطر، وأقفل الشرطي باب السيارة تاركاً هالة في الخارج، دفع بها بعيداً وقال: عودي إلى والدك وأخبريه أن ابنك قد سرق.

تحركتْ السيارة تاركة هالة على الأرض تحت المطر، وابتعدتُّ عنها، صرختُ في السيارة: ليس هناك مكان تعود إليه! نحن لسنا من هذه المدينة! أين لها أن تذهب؟ أين لها أن تنام؟

ولكن الشرطي لم يستمع إلى ما أقول، بل نظر إليّ بحدّة وقال: إذا لم تصمتْ فسأربط فمك.

صرختُ: لن أسكت، أنا لم أسرق، وهالة ليس لها من أحد تلجأ إليه! اتركوني!

وضع الشرطي يده على فكّي، ولكن شرطياً آخر أخبره أن مركز الشرطة في المنعطف التالي، ليس هناك من داع لإتعاب نفسه.

توقفتْ السيارة، وأنزلوني عنوة ووضعوني في زنزانة منفردة، وقال الحارس: ستظل هنا إلى أن يخرجك والدك.

والدي...

■ الفصل الثامن عشر | هالة

شوكالاته... متى كانت آخر مرة تناولتُ فيها الشوكولاته؟

كانتْ أمي تصنع منها في المنزل، كانت شهية جداً، كانت غالباً ما تدهنها على كعك مخبوز، أو تزين بها طبقاً من البسكويت، كانت لذيذة في أي شكل.

اعتذر إلي أحمد عن علبة الشوكولاته التي فقدها، لم أكن أعرف أن السيدة في المتجر أخذت العلبة وأعطتها لأحمد، ولكن تشابه العلب أوحى إليّ ذلك وقد كنتُ محقّة، ولكن هذا ليس مهماً الآن، المهم أن الحلوى في يدي، بالبطاقة السحرية حصلنا عليها، ونستطيع الحصول على ما نشاء.

رفعتُ أول قطعة، وقبل أن أقضم منها أمسك بيدي شرطي عنيف، سقطت القطعة أرضاً، وقد انتبهتُ إلى ثلاثة رجال أحدهم يمسك بي والآخر بأحمد، بينما يقف الثالث يحدق بنا، فتّش الاثنان جيوبنا، وأخرجوا البطاقة السحرية من جيب أحمد في ثوان، وسألوه: من أين سرقتَ هذه؟

رغم محاولات أحمد المتكررة للدفاع عن نفسه إلا أن الشرطة لم تكن حتى تسمع ما يقول، تركني الشرطي، واكتفوا بأحمد يجرونه إلى السيارة.

أمسكتُ يد الشرطي أقول: إلى أين تأخذونه؟

أجاب: إلى مركز الشرطة، أخبري والدك بذلك.

قلتُ: خذوني معكم!

ولكنه أصرّ: عودي إلى والدك وأخبريه بما فعل ابنه.

صرختُ ممسكة ذراع الشرطي بقوة أقول: نحن لسنا من هذه المدينة! ليس لنا من يرعانا هنا!

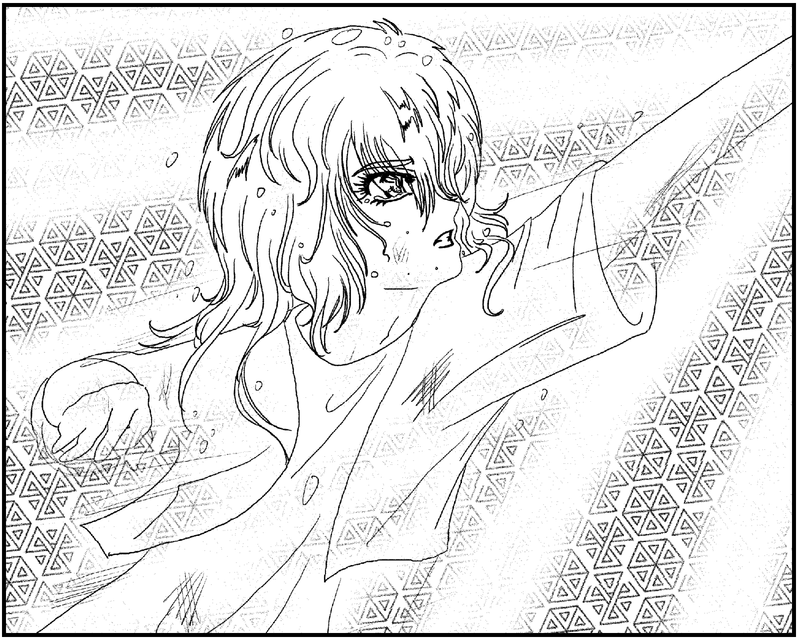
ولكن الشرطي دفعني مكذّباً وقال: كفّي عن ذلك، هذا لتتعلموا ألا تسرقوا في المستقبل.

بدأتُ أشعر بقطرات المطر تنزل، وقد أدخلوا أحمد السيارة عنوة، وأغلقوا الباب دوني، طرقتُ على النافذة أصرخ: لا تتركني! خذوني معكم!

مدّ أحمد يده إلى زجاج النافذة، ولكن السيارة كانت قد انطلقتْ، وتُركتُ وحدي تحت المطر...

وحدي... ماذا عساي أفعل وحدي؟

جثيتُ على الأرض أشعر بالمطر يبللني، لماذا أخذوا أحمد مني؟ لم يكن لي في الدنيا سواه! هل استكثروه عليّ؟ أمن العدل أن يملك الناس كل شيء ولا أملك أنا حتى أحمد؟



والآن ليس من مكان أتجه إليه، أين يذهبون بأحمد؟ هل أستطيع اللحاق به؟ ماذا أفعل؟ هل أظلّ تحت المطر أم أبحث عن مكان دافئ؟ أين أجد مكاناً كهذا؟ وهل من مكان يدفئ قلبي؟ أمي... لا تأخذي أحمد معكِ.

وضعتُ رأسي على الأرض المبتلّة، ليس من مكان أذهب إليه، ليس من سبيل أسير فيه، أنا ضائعة تماماً، فمن يرشدني؟

يا رب... كان أحمد كل ما أملك، كان يرشدني، كان يطعمني، كان يعتني بي أكثر من نفسه، والآن وقد أخذته مني ماذا يتوجب عليّ

أن أفعل؟ ما الذي فعلتُه لأستحق كل هذا؟

رفعتُ رأسي أنظر الطريق التي مشتها السيارة، إنني لا أدلّ الطريق الذي سلكوه، ولكن هل من طريق آخر؟ كل ما أريد الآن أن أتبع أحمد، أن أبحث عنه لأعثر عليه في أي مكان.

اتخذتُ قراري، ويا له من قرار، سرتُ تحت المطر في الظلام في طريق أجهل نهايته، كل ما أعرفه أن السيارة سارت من هنا، وفيها أحمد، وكان هذا كافياً.

وصلتُ إلى مفترق طرق، هل سارت السيارة عن يمين أم عن شمال؟ كيف لي أن أعرف؟ ها قد اشتد المطر، فماذا عساي أن أفعل؟

لم أشعر بضياع كهذا في حياتي، اكتشفتُ أنني لم أكن وحيدة في حياتي كلها، فقد كان أحمد دائماً قريباً، ومع ذلك كنتُ دائمة التفكير بوالدتي، وأنني وحيدة من دونها، أما الآن فقد علمتُ أنني لم أكن وحيدة، الآن فقط بتُّ وحيدة.

الجو بارد، عليّ أن أجد مكاناً أحتمي فيه، ماذا كان سيفعل أحمد لو كان معي؟ قررتُ أن أسلك الطريق الأيمن، علّني أجد بناية أو حديقة تقيني البرد.

سرتُ في محاذاة الشارع، فكانت المنازل الفخمة موزعة على

الجانبين، ومسوّرة بسور كبير، ممّ يخافون؟ ألا يملكون كل شيء؟ وماذا لو دخلتْ فتاة مثلي الحديقة لتحتمي من البرد؟ هل سيضرهم ذلك بشيء؟

يبدو أنني أخطأتُ اختيار الطريق، لم أعد أقوى على السير أكثر، أحمد... أحمد أين أنت؟ كيف كنتَ تجد الطعام والمأوى؟ ماذا كنتَ تفعل؟

هل أعود لأسلك الطريق الثاني؟ وماذا سأجد هناك؟ عن ماذا أبحث بالضبط؟ لم أعد أدري... أشعر ببرد شديد، وثيابي مبتلة تماماً، وعيناي تطلبان النوم منذ ساعة، هل أطرق على أحد الأبواب وأجرب حظي، علّها عائلة طيبة.

فكّرتُ في الأمر كثيراً، من سيستقبل فتاة قد هربتْ من المنزل؟ سيخشون أن يتهمهم أحدهم باختطافي، لن يستقبلني أحد، لربما كان أفضلهم من يسلمني إلى الشرطة، تلك التي أخذتْ أحمد... لا بأس في ذلك، لربما وجدتُ أحمد، ولكن المشكلة إذا ما كان مركزاً آخر، أو مكاناً بعيداً عن أحمد، فماذا سأفعل حينها؟

ظلّت الأفكار تدور في رأسي، ولم أنفّذ أيّاً منها، بقيتُ أسير في الطريق فحسب، إلى أن وجدتُ امرأة تخرج من منزلها، تلف نفسها

بلحاف صوفي وتغطي رأسها به، تسير مسرعة تحت المطر إلى سيارتها، يبدو أنها نسيتْ شيئاً ما.

فتحت السيارة وأخرجت حقيبة كانت قد نسيتها فيها، وأغلقت الباب لتعود راكضة إلى المنزل، وقفتْ على الباب لحظة وقد لاحظتْ وجودي على طرف الشارع، تمهّلتْ قليلاً في إقفال الباب، لابد أنها تعجّبتْ من أن أحدهم يقف تحت هذه العواصف.

سرتُ ثانية إلى أن لمحتُ الباب قد فُتح من جديد، كانت السيدة ما تزال هناك، أشارتْ إليّ بالاقتراب، لم أدر ما أفعل، وهل هناك ما أفعله غير هذا؟ اقتربتُ منها، فسألتني: ماذا تفعلين تحت المطر يا صغيرتي؟

بم أجيب؟ أنا فتاة صغيرة دمّرتْ حياتها زوجة أب حقود، فهربتْ مع أخيها إلى مدينة أخرى، فألقى بهم البحر إلى مدينة ثالثة، فأَدخل أخوها السجن بتهمة السرقة... رأسي يكاد ينفجر.

سألتْ المرأة ثانية: أنت مبتلّة تماماً، هل أضعتِ الطريق؟

كانتْ فكرة جيدة، أضعتُ طريق العودة، ووالدتي تبحث عني، ولستُ أعرف أين أذهب... وهل سينتهي بي الأمر إلى مركز الشرطة، إلى أحمد، ليس خياراً سيئاً، أشرتُ بالإيجاب، فقالت: ادخلي،

ستمرضين إذا ما بقيتِ تحت المطر.

ودخلتُ المنزل! كان دافئاً وكبيراً، في منتصف الصالة درج جميل، وعلى الجدار موقد خشبي، كان يعطي دفئاً للمكان، قرّبتني المرأة من النار، وتركتني هناك لتجلب منشفة وثياباً جديدة.

نظرتُ حولي، إن المنازل في الداخل أجمل منها في الخارج، أريكة في الزوايا، وبراويز متنوعة، وإضاءة خفيفة، الأرض كانت من بلاط برّاق، والسقف مزخرف بالتحف الفنية، إنني في قصة خيالية.

عادتْ المرأة تحمل ثياباً جميلة، بنطال أبيض مزركش مع قميص وردي بسيط، إضافة إلى منشفة لفتها حول جسدي فكانت ناعمة جداً.

استبدلتُ ثيابي شاكرة لطفها، وبقيتُ إلى جانب الموقد حيث بدأتُ أعتاد على الدفء العام في المنزل، كم كان الجو بارداً في الخارج.

وضعتْ المرأة يدها على شعري وقالت: إنه بحاجة إلى تجفيف، تعالي معي.

صعدتُ الدرج في منتصف الصالة، كان شعوراً رائعاً أن تطأ قدمي درجاً فخماً كأميرة في قصة أسطورية، استمتعتُ بكل لحظة ولكنني كنتُ أعلم أن هذا لن يدوم، إنه خيال فحسب، ولست أدري متى ينتهي.

أدخلتني غرفة كانت مجهزة بمرايا، وأدوات لتصفيف الشعر، وأجهزة أخرى لم أر مثلها في حياتي، قالتْ: هذا صالون لتصفيف الشعر، إنني أعمل فيه، غالباً ما تحضر الزبائن هنا حسب الموعد، ولكن اليوم وبسبب العواصف ليس من أحد سيحضر.

ثم نظرتْ إليّ قائلة: أنتِ زبونتي اليوم.

فكرتُ على الفور وقلتُ: أنا لا أملك نقوداً.

ابتسمتْ المرأة وطلبتْ إليّ الجلوس أمام المرآة قائلة: لن آخذ منك فلساً واحداً، أنت فتاة جميلة، وسأصفف شعرك لأنه جميل.

جلستُ أمام المرآة، ووضعتْ المرأة قطعة قماش على صدري، وبدأتْ تصفف شعري، قامت بقص الأطراف ثم عمدت إلى تجفيفه، وأخيراً بدأت تعمل في تجديله بشكل جميل ومحترف.

لم أتصور في ظروف كهذه أن أجلس هذه الجِلسة، فقد جلستْ هنا نساء يقضين معظم وقتهن في الاعتناء بجمالهنّ، كم أنا بعيدة عن هذه الحياة المترفة، وهذه ليست إلا لحظات زائفة من الحياة التي أعيشها... ماذا أفعل؟

■ ■ ■

■ الفصل التاسع عشر | أحمد

بقيتُ أنظر إلى الوراء إلى أن اختفتْ هالة عن الأنظار، ماذا عساها تفعل وحدها تحت المطر؟ كيف أتركها وأرحل هكذا؟ إلى أين ستذهب، وماذا ستفعل؟ يا إلهي...

أمسكتُ ذراع الشرطي إلى جانبي أتوسل إليه: أرجوك لا تتركها، فليس من مكان يؤويها، إنها وحيدة!

رفع الشرطي يدي يقول: وهل تريدني أن أحتجزها في القسم؟ إنه ليس مكاناً لطيفاً يا هذا.

سألتُ: هل ينزل المطر داخل القسم؟

تعجب الشرطي من سؤالي، وقال مستهزئاً: بالطبع لا!

قلتُ: إذن أحضرها، فليس من مكان تذهب إليه.

أمسك الشرطي ذقني بقوة، وقرّبني إلى وجهه يقول: يا صبي، القسم لا يحوي اللطفاء، ولا تظن أن الزنزانة تحوي فتيات بريئات، فكّر بما سيحل بك فقط، هذه نصيحتي لك.

سأل شرطي يجلس في المقدمة: هل هو بحاجة إلى قيود؟

فأجابه الشرطي الذي يجلس إلى جانبي: الطريق قصيرة، لا تأبه بذلك.

عدتُ أنظر إلى الوراء، لقد ابتعدنا، وما من أثر لهالة، أين ستذهب؟ وماذا عساي أن أفعل؟ هل هذا هو الفراق بيننا؟

مرتْ دقائق قليلة وتوقفت السيارة أمام مركز للشرطة، أخرجني الشرطي من السيارة يدفعني بقوة، كان المطر يهطل بغزارة في الخارج، أين تجلس هالة الآن؟

أدخلني الشرطة المركز، ومن البوابة إلى ممر صغير إلى زنزانة مشتركة، أدخلوني وأقفلوا الباب ورحلوا، ماذا يفعلون؟ ألن يسألني أحدهم ماذا فعلتُ؟ ألا أستطيع أن أدافع عن نفسي؟ إلى أين يغادر الشرطة؟

كانت الزنزانة عبارة عن غرفة بلا نوافذ، طولها خمسة أمتار، وبعرض ثلاثة، ليس لها سوى باب واحد مصنوع من الحديد، ومنفذه الوحيد نافذة مشبّكة بطول إنشات، أكاد أختنق!

حاولتُ فتح الباب أصرخ: إلى أين تذهبون؟ لماذا تتركوني هنا؟ أنا لم أسرق! لقد كانت على الأرض! أين أنتم؟ ولكن أحداً لم يُجب.

فتابعتُ الصراخ: يجب أن أخرج! أختي لن تجد مكاناً تحتمي فيه من المطر، أين ستنام، الطقس بارد...

ليس من مجيب، سمعتُ صوت ضحكات خفيفة في الغرفة،

التفتّ فوجدتُ مجموعة من السجناء متعددي الأعمار، منهم من يجلس على الأرض، يرتدون ثياباً متنوعة، كانوا يحدقون فيّ بعيون شرسة، هؤلاء سجناء حقيقيون مذنبون.

اقترب أحدهم مني وسألني: سرقة؟ قتل؟ أم هرب من المنزل؟

ضحك الباقون، إنهم يستهزئون بي، لم أجب عن سؤاله فاقترب أكثر وسأل: أهو هروب من المنزل، أين ماما؟

انفجر السجناء بالضحك، بالفعل كنتُ أصغر السجناء، ولم يكن يكذب بأنني هربتُ من المنزل، ولكن لم يكن هذا سبب احتجازي، حدّقتُ فيهم وسألتُ: ماذا يفعلون بعد احتجازنا؟

صمتَ الجميع فجأة، ثم قال أحدهم: بعد احتجازنا... يحتجزوننا.

انفجر الجميع بالضحك ثانية، لم يكن ذلك مؤشراً حسناً، يجب أن أخرج من هنا، هالة وحيدة في الخارج، قلتُ: من المسؤول عن احتجازنا هنا؟

أجاب أحدهم: العدالة.

ضحك الجميع، لا يبدو أن أحدهم يأبه بما يجري، بل يبدو أنهم معتادون على الاحتجاز والمساءلة، كم مرة خرقوا القانون؟ لم يكن

ذلك مهماً، عليّ فقط أن أفكر في طريقة للخروج، أنا لم أقصد السرقة، ولم أكن أعرف صاحب البطاقة، والبطاقة لم تعد معي، ولم أصرف منها أكثر من خمسة دنانير! كما أنني صغير في العمر، وعلى والدي... على والدي أن يخرجني من هنا.

ماذا إذا لم يحضر والدي ليوم، يومين، ثلاثة! هل سأظل هنا طول الوقت؟ ألن أخرج أبداً.

كلا، عليّ أن أفكر بهدوء، وكيف لي أن أفكر والجميع يحدقون بي، إنهم مخيفون، وليس لدي وقتٌ للتفكير فيهم، إن عقلي في الخارج، هناك يفكر في حل.

اقترب أحدهم مني، يبدو هادئاً بعض الشيء، وقف إلى جانبي وخاطب الجمع قائلاً: هذا يكفي، لا يبدو أنه معتاد على ما يجري.

ثم نظر إليّ وقال: في المساء يجمعون المعتقلين هنا، وعندما تطلع الشمس تبدأ عملية الفرز بين المراكز، فماذا فعلت يا هذا؟

أجبتُ: أخذتُ بطاقة لم تكن لي، ولستُ أعرف صاحبها.

قال: سرقتَ.

قلتُ مؤكداً: لم أكن أعرف صاحبها، لقد وجدتها على الأرض، لم أقصد السرقة.

سكتَ وفكّر قليلاً ثم قال: أين والدك؟

طأطأتُ رأسي وقلتُ: في مدينة أخرى، ولن يحضر.

سأل: من الوصيّ عليك؟

لم أجب، كنتُ دائماً الوصيّ على هالة، أو كما أعتبر نفسي، ولكن ليس من وصيّ عليّ، فقال عندما لاحظ صمتي: لا تعقد الأمور، إذا ما تنازل صاحب البطاقة عن حقه في عقابك، فإنك ستخرج بسهولة.

شعرتُ بتيار شديد من الأمل، قلتُ: هل هذا صحيح؟

أجاب: عليك أن تنتظر إلى الصباح لتعرف ما يجري.

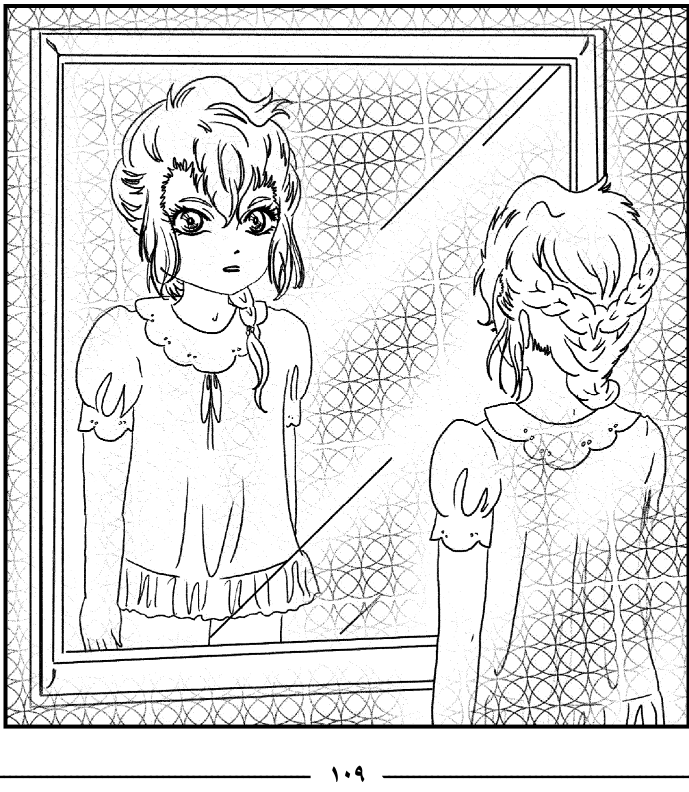
إلى الصباح، ولكن هالة... تحت المطر.

■ ■ ■

■ الفصل العشرون | هالة

كانت والدتي تصفف شعري، وتزينه بـألوان مـن الإكسـسوارات كل يوم، كنتُ أشعر أنني جميلة، وسأصبح أجمـل عنـدما أكـبر، مثـل والدتي، فهي أيضاً تعتني بجمالها وأناقتهـا، أريـد أن أكـون مثلـها في كل شيء.

اليوم عاودني ذات الشعور، أنا جميلة، وأريـد أن أصـير أجمـل عندما أكبر، يا ترى أين سأكبر؟ هل سأظل هكذا أحوم بين الطرقات؟



قاطعتْ السيدة أفكاري عندما قالتْ: أنتِ جميلة جداً.

نظرتُ إليها وسألتُ: لماذا تفعلين ذلك؟

سكتتْ قليلاً ثم قالتْ: لأنك جميلة.

عندها فتحتْ الباب فتاة في السابعة عشرة من العمر، شقراء الشعر، تربط شعرها الطويل بشكل جميل، وتحمل على ظهرها حقيبة صغيرة، وفي يدها مظلّة مبللة، يبدو أنها دخلتْ للتو.

قالتْ السيدة: أهلاً بعودتك، كيف كانت الرحلة؟

بدلاً من أن تجيب حوّلتْ نظرها إليّ وسألتْ: من تكون؟

قالتْ السيدة: إنها زبونة.

لم تقتنع الفتاة بالإجابة، بل قالتْ: لم أرها من قبل، بنت من هذه؟

قالتْ المرأة: إنها ليستْ من هذه المدينة، إنها في زيارة قصيرة فقط.

ألقت الفتاة بالحقيبة على الأريكة وقالتْ: هل من شيء يؤكل؟

تعجبتْ السيدة وسألتها: ألم تأكلي في الرحلة؟

أجابت الفتاة بسخط واضح: وهل تسمين بعض الشطائر أكلاً؟

قالتْ السيدة: لقد حضّرتُ لك أربع شطائر، كل منها بنكهة مختلفة.

ولكن الفتاة قالتْ: لم تعجبني أي منها، ماذا لدينا في المنزل؟

تنهدت السيدة وقالتْ: لدينا بعض الطعام الجاهز، ومعلبات.

انفجرتْ الفتاة وبدأ صوتها يرتفع غضباً: معلبات! هل تريدين مني أن آكل طعاماً معلباً!

لم تجب المرأة، بل ظلّت صامتة تستمع إلى صراخ الفتاة الساخطة على كل شيء، وبدأ حديثها يأخذ منحى آخر: أنتِ لا تجيدين شيئاً... ما الفائدة منكِ... ماذا تظنين نفسك...

غريب ما أسمع، كنتُ أكيدة أنني أرى ما لا يتوجب عليّ أن أراه، شعرتُ برغبة شديدة في مغادرة الغرفة، بل المنزل، ولكن لم يكن ذلك مناسباً، بل لم يكن أي شيء مناسباً.

خرجت الفتاة من الغرفة غاضبة، كنتُ أسمعها تتابع الكلام الساخط على المرأة حتى من الغرفة المجاورة، لماذا تفعل ذلك؟

هدأ المكان، يبدو أن الفتاة ابتعدت، حملت المرأة حقيبتها ومسحت مياه المطر عنها، وعلّقتها عند الباب بعناية، يبدو أنها امرأة مسكينة!

قالتْ بصوتٍ هادئ: مسكينة، لم يكن سهلاً عليها فقدان والدتها.

جفلتُ، لم تكن المرأة تتحدث إليّ، ولكن لم يكن هناك من أحد غيري في الغرفة، هل تتحدث بشيء مهم كهذا أمام طفلة في الثانية عشرة، أم أنها فقط تحدث نفسها؟

التفتتْ إليّ وقالتْ: آسفة لما جرى.

قلتُ: كلا أبداً، أنا آسفة أنني جئتُ في وقتٍ غير مناسب.

ابتسمت المرأة قائلة: إذن فكل الأوقات غير مناسبة.

نظرتْ المرأة من خلال النافذة إلى الأمطار في الخارج، يبدو أنها تسرح في ما يجري، هل عليّ أن أغادر الآن؟

قررتُ أن أنهض، يجب أن أغادرفالوضع بات متوتراً، لكن المرأة قالتْ لنفسها: ماذا عليّ أن أفعل لأجعلها سعيدة؟

سعيدة! لقد رفعتْ صوتها دون سبب، لقد سخرتْ من المرأة أمامي، ولا تبدو المرة الأولى التي تفعل بها ذلك! سعيدة... تريد أن تجعلها سعيدة!

نظرتْ إليّ وسألتني: ما الذي يرضيكم يا أبناء هذا الجيل العجيب؟

استوقفتني كلماتها دهراً، مذ فقدتُ والدتي ولم يعد هناك أي زاوية للرضى في قلبي، كان الحزن والشقاء هو الغالب على مسرى

حياتي، ولم تكن السعادة سوى سويعاتٍ قليلة أنسى فيها الحقائق المرّة.

هذه الفتاة فقدتْ والدتها مثلي تماماً، وها هي قد عكستْ ذلك على تصرفاتها، ولكن... ماذا تكون هذه المرأة لها؟ هل أجرؤ على السؤال؟هل أستطيع إخفاء فضولي؟ هل هي خالتها أم عمّتها؟ أم هل هي جليستها؟ أم...

نظرتْ إليّ وأعادت السؤال بشكل مباشر: ماذا يسعدكم يا أبناء هذا الجيل؟

أخيراً تجرأتُ على طرح السؤال: عفواً... ولكن ما هي صلة القرابة بينكما؟

أجابتْ ببساطة: إنني زوجة أبيها.

هذا ما خشيتُ أن أسمعه، شيء في داخلي أشار إلى الشبه الكبير بيني وبين الفتاة العنيدة، شيء في داخلي قال لي أنها إشارة ما وصلتْ متأخرة، شيء في داخلي بات يؤنبني، هل كنتُ المشكلة في العلاقة بيني وبين زوجة أبي؟ هذه السيدة تبدو لطيفة، بل وتفكر في إسعاد الفتاة، هل كانت زوجة أبي كذلك؟

هززتُ رأسي أحاول طرد الأفكار منها، كما حاولتُ نسيان

الماضي، كلا... زوجة أبي كانت سيئة، هذه السيدة طيبة، ماذا دهى لي؟ كيف أنسى أيام الشقاء، أيام الظلم، أيام العناء.

ولكن هل كان لي يد فيها؟ وهل كان أحمد أعقل مني حينها؟ ولكنه قد عانى أيضاً، هل كنت أنا سبب انعكاس تأثيرها على أحمد؟

بات رأسي يؤلمني، نظرتُ إلى السيدة وقد تمنيت لو كانت هي زوجة أبي، ولكن... هل كنت سأكون تلك الفتاة؟

بم أفكر؟ هل أنا المخطئة بعد كل ما حصل؟ هل أنا السبب في معاناة أحمد؟ هل كان بالإمكان أن أعيش حياة سعيدة؟

لا، أبداً! ليس مع تلك الأفعى، إنها لا تعرف الرحمة، إنها تختلف عن هذه، ولكنني لا أعرف هذه، لم ألتق بها إلا قبل لحظات، يا إلهي... لم أعد أستطيع التفكير.

قاطعت المرأة أفكاري بسؤالها، وكنتُ سعيدة جداً أنها فعلتْ: أين تسكنين يا صغيرتي؟

لستُ أدري لماذا نطقتُ الصدق الآن، ربما كان الحمل الثقيل الذي قسم ظهري منذ لحظات: لستُ من سكان هذه المدينة، جئتُ من الضفة المقابلة للبحر.

قالتْ: عند من تنامين هنا؟ خالتك؟ عمتك؟

لم أُجب، فسألتْ: ألم تسر زيارتك على خير؟

أشـرتُ بـالنفي، فقالـتْ: أتمنـى أن تكـون زيارتـك لمنزلـي قـد أسعدتكِ.

نظرتُ إليها وقلتُ: ليس لدي بيتٌ هنا.

سألتْ: هل جئتِ لوحدك؟

تذكرتُ أحمد فأجبتُ على الفور: لا، لستُ وحدي.

ابتسمتْ المرأة ابتسامة لـن أنـساها وقالـتْ: المنـزل قـد لا يكـون جدراناً وأخشاباً، المنزل قد يكون من لحم ودم.

توقف الزمن مـن حـولي، ولم أعـد أشـعر بـأي شـيء، لم أشـعر بقدمي تقفزان من فوق الكرسي، لم أشعر بنفسي أركـض في الـصالة، لم أشعر بباب المنـزل يُفـتح علـى مـصراعيه، لم أشـعر بميـاه المطـر تبلـل شعري، لم أشعر ببرد المياه تتسرب إلى أقـدامي، أريـد أن أعـود... إلى منزلي...

■ ■ ■



■ الفصل الحادي والعشرون | أحمد

اضطررتُ للانتظار حتى الصباح، لم أستطع النوم وقد كنتُ أفكر بهالة، أين ذهبت؟ أين نامت؟ أين احتمت من المطر؟ ماذا أكلت؟ هل تعرضت لأي مكروه؟

طلع الفجر، كانت أطول ليلة في حياتي، وانتظرتُ دقيقة بدقيقة أن يذكر أحدهم اسمي، وأن أخرج من هذه الزنزانة.

أصحبت الساعة العاشرة صباحاً، لم يحصل شيء، كلنا كنا في الزنزانة، ولم يحضر أحدهم، كنتُ متوتراً جداً، ماذا أفعل هنا وهالة تجلس وحيدة في الخارج؟ يجب أن أخرج.

نهضتُ واقتربتُ من باب الزنزانة أنوي الصراخ على أي من الحراس، إلى متى سنظل هكذا؟ ولكن ما إن اقتربتُ من الباب حتى منعني الشاب ذاته من الاقتراب، إنه قد قرأ في عيني ما أنوي فعله، وضع يده على كتفي وقال: اصبر، فهذا لن يفيدك.

وقبل أن أجادل سمعتُ اسمي ينادي به الحارس عند الباب، ركضتُ أقول: أنا هو!

فتح الزنزانة وأخرجني لوحدي، لم يكن لطيفاً ولكنني كنتُ سعيداً بالخروج من تلك الغرفة، إلى أين... لا أدري، ولكن خارج تلك الغرفة.

أخذني الحارس إلى غرفة في الطابق العلوي، كان هناك رجل يجلس خلف مكتب، وشاب أشقر الشعر، أنيق الثياب يقف أمامه، وقد رأيتُ البطاقة اللعينة في يده على الفور.

قلتُ قبل أن يوجه إليّ أي سؤال: لم أسرقها، أقسم أنني وجدتها قرب النافورة في الحديقة.

كان من الواضح أن الرجل الجالس خلف المكتب قوي البنية، شديد الطباع، شكاك بكل كلمة، ولم يعجبه ما قلتُ على الإطلاق، بينما كان الشاب لطيفاً حسن المظهر، ولم يبدِ أي ردة فعل على ما قلتُ.

قال الرجل: هذا الشاب هو صاحب البطاقة، لقد سرقته باستخدامك نقوده في البطاقة.

نقوده في البطاقة! أنا لم أرَ نقوداً على الإطلاق! نظرتُ إلى الشاب هذه المرة أوجه إليه حديثي، لعلّه يكون صاحب قلبٍ كريم: يا سيدي، أنا لستُ من هذه المدينة، وهذه أول مرة أقع فيها على بطاقة من هذا النوع، أنا لا أعرف أنها نقودك، ولو كانت نقوداً لما صرفتُها، لقد اشتريتُ بعض الفطائر لأنني كنتُ جائعاً، وعليّ الاعتناء بأختي أيضاً، فهي لا تملك في الدنيا غيري.

لا يبدو أن الشاب قد تأثر مما قلتُ، ولكنه قال: قلتَ أن البطاقة كانت قرب النافورة.

أشرتُ بالإيجاب، فابتسم الشاب ونظر إلى صاحب المكتب وقال: لقد كنتُ هناك مع مجموعة أصحاب، يبدو أنني أسقطتُها مصادفة.

لكن الرجل قال: ما كان عليه أن يستخدمها، كان عليه أن يسلمها لأقرب مركز.

قبل أن أدافع عن نفسي قال الشاب: إنه لم يصرف منها سوى خمسة دنانير، لستُ مستاءً، فقد كان خطئي أنني أضعتُ البطاقة.

شعرتُ بشيء من الأمل يتدفق إلى نفسي، هذا شاب كريم الأخلاق، ولكن الرجل قال: هل أفهم من حديثك أنك تتنازل عن الأضرار رسمياً؟

أجاب الشاب: سأتأخر عن عملي، أنا لا أريد شيئاً من الصبي، فها هي البطاقة معي، ولا أريد شيئاً آخر.

قال الرجل: هل توقع على ذلك؟

لماذا يحاول أن يجعل الأمر معقداً؟ قال الشاب: أوقّع.

قدّم الرجل إليه ورقة قام الشاب بالتوقيع عليها، هل انتهى كل شيء؟ غادر الشاب المركز ولم ينظر إليّ، لا يبدو أنه قد صدّق تماماً ما

قلتُ، نظرتُ إلى الرجل الجالس على المكتب، كان يحدق فيّ بعيون لا آمل منها خيراً، هل أُغادر؟ أم هل عليّ أن أعتذر عمّا فعلتُ؟ أم هل عليّ أن أنتظر فقط ما سيقول لي؟ لا أعرف، أنا لستُ معتاداً على ذلك.

قررتُ أن أصمت، فإن كانت هناك خسائر فهي الأقل هكذا، وقد نطق بعد برهة: تهانينا.

كان هذا مبشّراً، قلتُ: شكراً، هل أستطيع المغادرة الآن؟

ضحك بصوتٍ مرتفع، ثم نهض من الكرسي وقال: لقد تنازل عن حقه رسمياً، شباب اليوم، إنهم لا يعرفون متى ينسحبون ومتى يخوضون المعركة.

معركة! اقترب الرجل مني، وأمسك ذقني وقال بحدَة: كيف لنا أن نتخلص من أطفال الشوارع ومشاكلهم؟

قلتُ: أنا أقسم أنني لستُ من هذه المدينة، لا تُشغل بالك بي.

ترك الرجل وجهي، ولكنه لا يبدو راضياً عمّا جرى، سألتُ ثانية أحاول اختصار الكثير: هل أُغادر يا سيدي؟

نظر إليّ وكأنني لم أفهم أي شيء، ونادى الشرطي الذي جلبني، وأمره بشكل واضح: أعد الصبي إلى الزنزانة.

أمسك الشرطي بيدي، فسألتُه: لماذا؟ لقد تنازل الشاب بشكل

رسميّ، فلماذا أعود إلى الحبس؟

ابتسم الرجل ابتسامة ساخرة وقال: كان ذاك حقه الشخصي، وبقي حق العامّة.

سألتُ: حق العامّةّ! وما حق العامّة؟

قال بحزم: اسأل أصدقاءك المسجونين. ثم وجّه كلامه إلى الشرطي: أبعده عن ناظري.

أطاع الشرطي وسحبني إلى السجن رغم مقاومتي، هذا ليس عدلاً، هالة وحدها في الخارج، عليّ أن أغادر، لماذا تفعلون ذلك؟ لقد انتهى الأمر وغادر الشاب بالبطاقة، إن كل شيء على ما يرام! ماذا يحدث هنا؟ أنا لستُ من هذه المدينة، أُقسم! أُقسم أنني لستُ من هذه المدينة! دعوني...

■ ■ ■

■ الفصل الثاني والعشرون | هالة

أمي... لقد أخذوا أحمد

أمي... هل قدري أن أكون وحيدة؟

أمي... لماذا أشعر أنك أقرب إليّ من أحمد؟

كنتُ أركض بأقصى سرعة، إلى أين؟... إلى أحمد، أين هو؟... لا أدري، أنا فقط ذاهبة إليه.

كانت الأمطار تهطل بغزارة، والرياح تعصف بقوة، أظن أنني ركضتُ عائدة إلى حيث كانت سيارة الشرطة آخر مرة، لم أعد متأكدة من الطريق.

أما من شرطي هنا؟ أما من حارس؟ أما من إنسان؟ كل الطرق خالية، الجميع يختبئون من العاصفة، لابد أن يكون أحمد أيضاً في مأمن من العواصف، ماذا أفعل؟ إنني أركض هنا وهناك على غير هدى!

وصلتُ الحديقة، ما من أحد فيها، تبدو مخيفة، والمجمع مغلق، لا أحد هنا، ماذا أفعل؟

لم أعد أقوى على السير أكثر، ولا أعرف كم هي الساعة، لابد أنها قد تجاوزت منتصف الليل. جلستُ في زاوية من ساحة المجمع

أحتمي من العواصف، كانت مسقوفة، ولا تعصف فيها الريح.

كان الطقس بارداً، والرياح تعصف، والرعد يدوّي، ولكنني غفوتُ، كنتُ متعبة جداً لدرجة كنتُ سأفقد فيها وعيي، نمتُ وحيدة في العراء، هل أنت في وضع أفضل يا أحمد؟

لم يكن نومي ثقيلاً، كنتُ شبه مستيقظة، لم أكن أخشى شيئاً من قبل، كان أحمد دائماً إلى جانبي، أظن أنه لم يكن ينام بشكل جيد طول الوقت، بينما كنتُ أعتمد عليه.

سأبحث عنه غداً لأول الفجر، ما إن تهدأ العواصف سأدق باب كل مركز شرطة في المدينة، ولن أدعهم يأخذوا أحمد مني، أنا التي أقنعته باستخدام البطاقة، أنا الملامة فقد فعل ذلك من أجلي.

مرت ساعات طويلة، وطلع الفجر أخيراً، كان الجو ما يزال بارداً، ولكن الهواء قد سكن، الآن أبحث بجد عن أحمد، بل وأصر على إخراجه من محنته.

نهضتُ أشعر بألم في كل أضلاعي، ليس هذا وقت الآلام، هناك طريق طويل عليّ أن أقطعه. سرتُ مجدداً في الطريق التي اتخذتها سيارة الشرطة بالأمس، ووصلتُ إلى منعطف الطرق فاخترتُ الطريق الذي لم أسلكه بالأمس، فكان طريقاً تجارياً، ربما يكون مركز الشرطة هنا.

كانت الأسواق مقفلة، فالوقتُ مبكر جداً، ولا أحد في الطريق، ولم تشرق الشمس بعد، سرتُ بين المتاجر أبحث عن أي شرطي أو مركز للشرطة، ولكن ليس هناك مركز قريب، لا عجب أنهم يستخدمون السيارة.

كانت المتاجر متنوعة من حولي، بقالات، متاجر سمك ولحوم، حتى القرطاسيات، تذكرتُ كم كنتُ أود أن أقرأ كتاباً كما كانت والدتي تقرأ، كنتُ جادة في التعلم، وقد أتقنتُ الأحرف بسرعة، وتعلمتُ القراءة قبل الآخرين في الفصل، حتى أحمد لم يكن يجيد القراءة كما أجيدها.

واليوم أقرأ اللافتات بكل سهولة، ويوماً ما عندما تتحسن الأحوال سأكون حريصة على اقتناء كتاب أوّل الأمر.

إلى أين شردتُ؟ إنني لم أجد أحمد بعد، فكيف للأوضاع أن تتحسن؟ إنني أسير وحدي في الطرقات لا أعرف مصيري، فعن أي كتب أحدّث نفسي؟ عليّ أن أكون أكثر واقعية.

ها هو أحدهم يفتح بقّالته، إنه يبيع الخضراوات، جميل أن يكون نشيطاً وهو في أواخر الخمسين.

وها هو الآن آخر يفتح بقالته، يبدو أنها تحوي بعض اللوازم

المنزلية، وقد تلاه رجلين آخرين، ثـم آخـرين، حتـى افتتحـتْ معظـم المتاجر، لقد بدأ يومهم، وتجهـزوا لاستقبال الزبـائن في وقـتٍ مبكـر جداً.

شرطة... شرطة... مركز شرطة، لا يبدو أن هناك مركز قريب! اتجهتُ إلى أحد التجار أسأله عن أقرب مركـز للـشرطة، فأجـاب بعـد تفكير: أظن أن أقرب مركز يقع في نهاية هذا الطريق، قد تحتاجين إلى حافلة توصلك، فهو بعيد.

سألته عن بعده، فكيف لي أن أستقل حافلة وأنـا لا أملـك قرشـاً واحداً، فأجاب: نحو ثلاثة كيلومترات.

لـولا أنـني كنـتُ أعمـل في الحقـول لمـا كنـتُ عرفـتُ المـترات والكيلومترات، ولولا منزل الحاج غانم لما كنتُ قطعتُ مسافات طويلـة في حياتي... الحاج غانم... يرحمك الله يا حاج.

تابعتُ سيري، وقد بدأتُ أشعر بالجوع، بعد نـصف سـاعة بـدأ الطريق يمتلئ بالمشاة، بعضهم يتسوق، والبعض الآخر يسير إلى عمله، والأولاد يحملون حقائبهم الدراسية متجهين إلى مدارسـهم كـأي يـوم عادي، أمّا يومي فهو مختلف، ليتني أحمل حقيبة دراسية أركض بها إلى المدرسة، ليتني تعلّمتُ الحساب والعلوم، كم هي أحلام بعيدة!

أخيراً ازدحم الطريق، وملأت السيارات والحافلات الشارع، وعمّ الضجيج المكان، لقد استيقظت المدينة عن آخرها.

مضت ساعة وأنا أسير حيث أشار إليّ الناس، وليس من مركز شرطة في الجوار، سألتُ أحد المتاجر من جديد، فأشار أن المركز بات قريباً، عند الزاوية في نهاية الشارع، ألا يفترض أن تتوافر مراكز أكثر للشرطة!

تابعتُ سيري أحاول تجاهل الجوع والعطش، وكلّي أمل أن يكون المركز الذي أُخذ إليه أحمد، ليتني أراه، بل ليتني ألمحه للحظة.

أخيراً وجدته، هذا هو مركز الشرطة، بناية صغيرة معتمة على زاوية الطريق، لا أرى أحداً في الخارج، دخلتُ فإذا بممر وغرف صغيرة إلى الداخل، استوقفني أول شرطي وسألني: ماذا تفعلين هنا يا صغيرة؟

أجبتُ: أبحث عن أخي، إنه في نفس عمري ويُدعى أحمد، هل هو هنا؟

أجاب دون تفكير: هذا ليس مكاناً للعب، لا يوجد صغار هنا.

قلتُ: لقد أخذته سيارة الشرطة البارحة، وهذا أقرب مركز، أظن أنه هنا.

ابتسم الشرطي وقال: لا يوجد أطفال هنا.

وبدأ يدفعني لأغادر، ولكنني قلتُ: لقد اتهموه بالسرقة ظلماً، هل لك أن تسأل لي عنه، يجب أن أراه.

دفعني الشرطي أكثر وهو يقول: هذا ليس مكاناً للعب، هيا عودي إلى المنزل.

لِم لا يسمعني؟ رفعتُ صوتي أقول: لن أغادر دون أحمد!

كان صوتي أعلى مما توقعتُ، فقد دوّى بين الغرف حيث خرج معظم من فيها ينظرون في الممر إلى من يصرخ، وهذا أزعج الشرطي أكثر، فأمسكني بقوة من ذراعي، ودفعني بعنف أكبر، ولكنني حاولتُ أن أقاومه، وصرختُ ثانية: أريد أحمد! لن أخرج دون أن أراه! دعني!

لستُ أقدر على المقاومة أكثر، كان الشرطي قادراً على حملي والإلقاء بي إلى الخارج بكل سهولة، وقد كاد أن يفعل لولا أن سمع صوتاً هادئاً يقول له: لماذا تصرخ هذه الصغيرة؟

توقف الشرطي، ونظر باحترام إلى شرطي آخر قد خرج من الغرفة المجاورة، تركني وانتصب يقول: سيدي، إنها تلعب في المركز.

قلتُ مؤكّدة: أنا لا ألعب، لقد أمسكوا بأخي أحمد البارحة، وهذا أقرب مركز للشرطة، لابد أن يكون هنا! أريد أن أراه.

ابتسم الشرطي ذو الرتبة العالية وقال: أهذا كل شيء؟

تعجب الشرطي من ردة فعل رئيسه الباردة، ورفع الرئيس يده إليّ يقول ببساطة: تعالي معي.

كان ذلك مخيفاً، ولكنني لم أكن لأهرب بعد الفوضى التي أحدثتها، كما أنني لن أغادر دون أحمد، هذا كان كل ما أعرف.

أمسكتُ يده فسار بي إلى الداخل، لم يكن المكان جميلاً من الخارج، كما لم يكن أجمل من الداخل، وكلّما دخل بي كان الوضع يزداد سوءاً، فقد باتت الممرات أضيق، والغرف أكثر شحوباً وأقل إنارة.

وصل بي إلى باب حديدي ذو شباك صغير مقفل، يقف أمامه شرطي للحراسة، يبدو أنه السجن، سأل الرئيس الشرطي: هل لدينا صبي اسمه أحمد في هذه الزنزانة؟

أجاب الشرطي: لا يا سيدي.

نظر الرئيس إليّ، ولكنني كنتُ أعند من أن أغادر بهذه البساطة، قلتُ: غير صحيح، إنه هنا! يجب أن أراه!

قال الرئيس: أنت بالفعل فتاة عنيدة.

ولكنه أشار إلى الشرطي أن يفتح الزنزانة، تفاجأ الشرطي ولكنه أطاع على الفور، وفتح الباب، كنتُ خائفة ولكنه في النهاية ينفذ طلبي، أنا من أردتُ ذلك، هل سيصيبني مكروه؟ هل سيدفع بي إلى السجن مع الآخرين؟ لا يجب أن أفكر بذلك، عليّ فقط أن أبحث عن أحمد.

فتح الشرطي الباب، وأمسكن الرئيس بيدي وأدخلني إلى جانبه، نظرتُ في الغرفة، كانت صغيرة تحوي أربع أسرة ذات طابقين، وجدران قذرة، ورائحة كريهة، الناس فيها يرتدون ثياباً رثة، عددهم يقارب العشرين، ولكن أحمد لم يكن بينهم.

نظرتُ ثانية، وكررتُ النظر، إنه ليس هنا.

أخرجني الرئيس وأقفل الباب، شعرتُ بهول ما فعلتُ في تلك اللحظة، لقد دخلتُ السجن! ما الذي قمتُ به؟ كان من الممكن أن أكون في خطر، وهذا الشرطي كان يساعدني... شعرتُ برغبة شديدة في الهروب، أريد أن أركض إلى الخارج، لم أعد أستطيع أن أتنفس في هذه الممرات الضيقة.

نظر الرئيس إليّ وقال: هل وجدتِ أحمدك؟

أشرتُ بالنفي، وقلتُ: آسفة، سأغادر حالاً ولن أعود مجدداً.

تركني الرئيس، فهرعتُ إلى خارج المركز بأسرع ما استطعتُ، أحمد ليس هنا، ولا يجب أن يكون هنا، هذا ليس مكانه، إنه ليس مجرماً ولا سارقاً، إنه... إنه أغلى ما أملك.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والعشرون | أحمد

قاومتُ وصرختُ لبضع دقائق، وبعد أن تيقنتُ ألا جدوى من ذلك جلستُ منعزلاً في زاوية الزنزانة، كيف لي أن أعرف متى سيطلقون سراحي، وهل سيفعلون؟

لقد مرّتْ ليلة عاصفة سيئة، أين نامتْ هالة؟ وكيف احتمتْ من العواصف؟ هل هي بخير؟ وأين لي أن أجدها إذا ما خرجتُ؟ كم أريد أن أخرج، هذا ليس وقتاً مناسباً للمشاكل.

اقترب مني أحد السجناء يسألني عمّا جرى في مكتب الشرطة، لا يبدو لطيفاً كما لا يبدو أنه قلق بشأني، لستُ أدري لماذا يسأل، ولكنني أجبته ببساطة أن صاحب الحاجة قد استردّها مسروراً، ولكن الشرطي قد مدد حبسي رغم ذلك، ولا أعرف أكثر من ذلك.

لا يبدو أن الرجل كان ينصتُ إلى ما أقول، كأنه طرح السؤال ليقترب مني، أو أنه كان يعلم الإجابة مسبقاً، هل يحدث ذلك مراراً؟

قال: ما الذي سرقته؟

أجبتُ: لم أكن أقصد السرقة، إنها بطاقة كانت على الأرض، هذا كل شيء.

سألني: هل تعمل لحساب شخص ما؟

مــاذا يقــصد؟ مــاذا يظــنني؟ أجبــتُ: لا، لا أعمــل لحــساب أي شخص، لقد حصل سوء تفاهم فقط.

كرر يسألني، ووجهه خال من التعابير، بـات الوضـع مخيفـاً: ألستَ عضواً في جماعة ما؟ كيف لك أن تكون وحدك دون ولي أمر؟

لا يبدو أنــه كـان ينتظـر الإجابـة، إنــه يستفـسر لنفـسه، مـاذا يريد؟ أجبتُ أحاول أن أنهي الحوار: والدي منشغل في العمل.

تعجبتُ عندما قال: بل والدك في مدينــة أخـرى، وأنـت هربـتَ مع أختك إلى هنا.

كيف له أن يعرف عني كل ذلك؟ سألتُه مباشرة: ماذا تريد؟

قال: ألا تنضم إلينا.

يا إلهي، أنجدني من هذه الورطة، سألتُ: ومن أنتم؟

لم يُطل في الشرح، يبدو أنه لم يكن واثقاً من قبولي للعرض: جماعة كبيرة وغنية، ستصبح غنياً أنت وأختك في أيام، أليس هذا ما تريدانه؟

ما نريده! هـل هـذا فعـلاً مـا نريـده؟ لا... لـيس المـال هـدفنا، ولكنني لا أنكر أننا بحاجة إليه! سألتُ: وماذا عليّ أن أفعل؟

ابتسم وقال: شيء بسيط جداً، تجلس في المكان المطلوب، وتطلب النقود من الناس.

سألتُ: أتسوّل؟

سأل: ألم تفعل ذلك من قبل؟

لماذا يظن ذلك؟ ألأنني وحيد في مدينـة غريبـة؟ هـل كـل مـسافر تائه يتحول إلى متسوّل؟ أجبتُ: كلا، لم أفعل مـن قبـل، ولا أنـوي أن أفعل أبداً.

قال: ولكنك بحاجة إلى معونة.

قلتُ: شكراً، سأتدبر أمري.

ابتسم ابتسامة ساخرة ونهض يقول: القبول طواعية يختلف عن القبول عنوة.

يا رب، لا تجعلني أقف ذلك الموقف، لا أريد أن أطلـب المعونـة من أحد، أعنّا يا رب، أخرجني من هنا، فلستُ من هذه الجماعة.

مرّ وقتٌ ولم أعد أميز الليل والنهار، شعرتُ ببعض الـضجيج في الخارج، لا يبدو أن أحداً انتبه غيري، اقتربتُ مـن البـاب ولكـنني لم أستطع أن أعرف ما يجري، ربما يكون سجيناً جديداً مثلي.

بعد بضع دقائق فـتح الحـارس نافـذة الزنزانـة ونـادى اسمـي، اقتربتُ منه فقال ساخراً: هل تعلم من كان هنا؟

ليس لدي رفقاء في السجون، قلتُ: لا، وما أدراني.

قال ببساطة: هالة.

كنتُ كمن يسمع الاسم بعد سنين انقطاع، أمسكتُ قضبان النافذة بانفعال أقول: ماذا تقول؟

قال: إنها تبحث عنك.

قلتُ: أين هي؟

أجاب: غادرتْ.

سألتُ: إلى أين؟ ولماذا لم تأتِ إلى هنا؟ وهل كانت على ما يرام؟

قال الشرطي ساخراً: هوّن عليك، لقد كانت قطعة واحدة، ولكنها هربتْ مذعورة.

سألتُ: هربتْ! من ماذا؟

قال: يبدو أنها لم تُعجب بالسجون.

أغلق الشرطي النافذة ضاحكاً، إنه ليس بالشخص الذي أستطيع أن أحصل منه على خبر، يا رب، كلّي رجاء أن تكون هالة بخير.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والعشرون | هالة

تمتمتُ بأغان كنتُ أفضلها في صغري، أغان للعائلـة، للمرعـى، وأخرى لدراسة الأحرف، كانت والدتي تغنيها لنا كل يوم.

كنتُ قد ألقيتُ جسدي على كرسي في حديقة قريبة، أغفو لحظة وأصحو أخرى، أنا مرهقة وجائعة، والأهم من ذلك... أنني خائفة.

لستُ أدري ما أفعل، هل أبحث عن أحمد في مراكـز أخـرى؟ لم يكن العثور على هذا المركز سهلاً، ولم يكـن قريبـاً، هـل يُعقـل أنـه في مركز أبعد؟ ولماذا؟

إن معدتي تصفر، إنها تؤلمني، من أين لي بالطعـام؟ كيـف كـان أحمد يجلب طعاماً كل يوم؟

نهضتُ وكانت الشمس قد غربت، سرتُ بين الأسواق أفكر كيف لـي أن أحـصل علـى طعـام، هـل أطلـب مـن الخبّـاز قطعـة خبـز، هـل سيقدمها لي بكل بساطة؟ أخشى ألا يحـدث ذلـك، إذن هـل مـن بقايـا طعام؟ أليس هناك من مطعم يقدم لي البقايا؟ كيف لي أن أطلب ذلك؟

وأخيراً جاء الفرج، هناك إعلان صغير عُلّق على عمود الكهربـاء في السوق، قرأته "عزاء آل الشريف، وعشاء على روح المرحوم"، جرت العادة أن يكون العشاء عاماً للجميـع، أسـتطيع أن أحـصل علـى الطعـام

دون عناء هناك.

سرتُ حسب اللافتة، وسألتُ عن العزاء إلى أن وصلتُ، كان المنزل كبيراً وجميلاً، ويحوي باحة واسعة، وضعت فيها طاولات تحوي قدوراً كبيرة من الأرز والدجاج، إضافة إلى المشروبات، لا أصدق أنني وصلتُ، ولا أذكر آخر مرة تناولتُ فيها الدجاج.

وقفتُ على الباب، أخشى ألا يسمحوا لي بالدخول، ولِمَ لا؟ أليس طعاماً للأجر والثواب؟ رحم الله موتاهم، وبارك لهم فيما أعطاهم، أنا أولى الناس بالطعام.

أخذتُ نفساً عميقاً، لستُ أدري لماذا ينتابني شعور أن الأمر لن يكون سهلاً، لا تفكري هكذا يا هالة، يجب أن تدخلي بكل ثقة.

نظرتُ إلى ثيابي، رغم أنها جديدة إلا أنها اتسختْ في ليلة واحدة، ليتني اعتنيتُ بها أكثر، ليتني حرصتُ على تجنب المطر. ولكن ما المشكلة؟ ألستُ أطلب التبرع؟

خطوتُ أول خطوة نحو المدخل، كان الواقفون على الباب عابسون، أربعة شباب وشيخ عجوز، يرحبون بالضيوف ويتلقون التعازي، اقتربتُ أكثر فأوقفني أحدهم: أين تذهبين يا صغيرة؟

ما زلتُ بعيدة ومع ذلك استوقفوني بسرعة! أجبتُ: رحم الله

موتاكم، أردتُ أن أشارك في العزاء.

ازداد عبوساً ودفعني قائلاً: ليس لك مكان هنا، غادري.

كان عليّ أن أحاول، قلتُ: ولكنه عزاء للجميع، لِمَ لا أستطيع أن أدخل؟

أمسكني من ذراعي، وشدّني بعنف بعيداً، وألقى بي على الطرف الثاني من الشارع وقال بانزعاج شديد: إياك أن تعودي إلى هنا!

لا أظنني سأفعل، لقد فشلتْ مهمتي من قبل أن تبدأ، هل يبدو مظهري سيئاً إلى هذه الدرجة؟ إنني أتضوّر جوعاً، ماذا أفعل؟ وأين أذهب؟

سرتُ مبتعدة عن المنزل، وقد كان هناك نهر قريب، قررتُ أن أجلس على ضفته وأستنشق الهواء العليل، علّ الهواء ينسيني الجوع.

وصلتُ الضفة وجلستُ أمام المياه، إنه مكان جميل وهادئ، كان ليكون الأجمل لو توفّر لي بعض الطعام. جلستُ فترة قصيرة، حضَرَتْ فيها فتاة تقارب الخامسة والعشرين، ترتدي عباءة سوداء وحجاباً أسود، تسير مغمضة العينين تجاه الماء، ما تزال تسير رغم أنها باتت على بعد خطوتين من المياه، ناديتها: حاذري!

توقفتْ، ولكنها لم تلتفتْ، قلتُ: ستسقطين في الماء.

جلستْ الفتاة حيث كانت، ثم قالتْ دون أن تلتفت إليّ أو تفتح عينيها: شكراً.

كانت تبدو حزينة، هل خرجتْ من دار العزاء ذاك؟ اقتربتُ منها واستأذنتها أن أجلس إلى جانبها فلم تمانع، بقينا صامتتين فترة، لاحظتُ فيها بعض الخدوش على وجنتيها، وبعض الجروح العميقة التي قد قُطبتْ حديثاً، سألتْ بعد صمت: كم عمرك؟

أجبتُ: اثنا عشر عاماً.

ابتسمتْ وقالتْ: صغيرة، ماذا تفعلين هنا في وقتٍ متأخر؟ هل هو شجار في المنزل؟

ليته كان كذلك، أجبتُ: شيء من هذا القبيل.

شردتْ الفتاة فترة، ثم قالتْ دون أن توجه كلامها نحوي مباشرة: لا تتعودي الهرب، فهو ليس الحل الأمثل للمشاكل.

كيف استطاعتْ أن تخمّن ذلك؟ أنا لم أقل شيئاً! أجبتُ: قد تكون هناك أمور غير محتملة.

هزّتْ رأسها وقالتْ: ليست هناك أمور غير محتملة، هناك دائماً حلّ لم نبحث عنه جيداً.

هل هذا صحيح؟ صمتنا قليلاً، يبدو أن الفتاة ضريرة، سألتها: هل لي أن أسألك عمّا جرى لعينك؟

فكّرتْ قبل أن تجيب، وأجابتْ وهي ما تزال تحادث البعيد: حادث سيارة، لقد كُسر الزجاج في عيني.

شعرتُ بألم مما تقول، ولكنها كانت هادئة، أي صبر عجيب هذا؟ عندها قمتُ بربط ما جرى بالعزاء فسألتُ: وهل توفي أحدهم في نفس الحادث؟

أشارتْ بالنفي على الفور، ولكنها لم تقدم أي تفصيل على سؤالي، فسألتُها مباشرة: هل المتوفى عزيز عليك؟

ابتسمتْ وأجابتْ: أغلى من أي شخص.

قلتُ: آسفة لفقدك.

شردتْ الفتاة ثانية، ثم سألتني: اصدقيني القول، ما هي حكايتك يا صغيرة؟

أجبتها باختصار أن زوجة أبي كانت قاسية علينا، وهربتُ بصحبة أخي إلى مدن بعيدة عن موطننا، ولم أدخل في التفاصيل، فسألتْ: وأين أخوك؟

فكرتُ أن أقول أنه في مكان ما يلعب الكرة أو يشتري الخبز، أو

يفعل أي شيء، ولكنني نطقتُ الصدق باختصار: لقد ألقي في السجن ظلماً، وبتّ وحيدة.

بان الألم على وجهها بسرعة وسألتْ: أوليس من أحد يدافع عنه؟

أجبتُ: نحن وحيدان في هذه المدينة.

ساد الصمتُ المكان، ثم بدأتْ الفتاة الحديث بتفاصيل ما جرى: هذا عزاء أخي، لقد كان يقود السيارة، كان يقودها بسرعة متهورة، ولا أذكر أنه توقف عند أي إشارة حمراء، كان يسابق الجميع، وينتقل يميناً ويساراً في الشارع، لم تكن أول مرة يفعل بها ذلك، ولم أكن أقل منه سروراً بالمغامرة، إلى أن وقع الحادث، وتكسرت النافذة من جانبي، وأصابتْ عيني. أُدخلتُ المستشفى بحالة طارئة، وأُجريتْ عملية طارئة لإزالة الزجاج عن عيني، ولكن ما وقع كان قد وقع، وفقدتُ الإبصار في تلك اللحظة. لم يكن الحادث قد أصاب أخي بأي أذى، ولكن إحساسه بالذنب كان أكبر، وقد انهار لحظة أُزيح الضماد عن عيون لا تبصر، لم أره لحظتها، ولم أسمع صوته بعدها، فكل ما علمته أنه قد ألقى بنفسه من على ارتفاع عشرين متراً في اليوم التالي، وفقدتُه إلى الأبد.

لم تعد الفتاة تقوى على المتابعة، كان ذلك مؤلماً حقاً، ولكنها نطقتْ أخيراً تختم قصّتها: ليته علم أن فقداني لعيني أهون عليّ ألف مرة من فقداني له.

أحمد.. أين أنت؟ أشعر بقشعريرة، كُن بخير أرجوك، يا رب... أنتَ وحدك تعلم ما حلّ بنا، أعده لي سالماً يا الله.

أمسكتْ الفتاة بيدي فجأة وقالتْ: فلنتناول الطعام معاً.

طعام! أبهذه السهولة سأحصل على الطعام من نفس دار العزاء؟ كم أنت رحيم يا الله.

أخذتْ الفتاة بيدي تقودني إلى المنزل، وقد ساعدتها في الاهتداء إلى الطريق، ووصلنا إلى ذات البوابة التي طُردتُ منها، فتوقفتُ وطلبتُ إليها أن تقترب وحدها، فلم أكن مرحبة في هذا المكان. حزنتْ الفتاة لما سمعتْ، واتجهتْ إلى البوابة وحدها، دخلتْ وطلبتْ طبقاً من الطعام، فحصلتْ عليه دون مساءلة، فهذا كان منزلها، وعادتْ به إليّ.

لم أكد أصدق ما أرى، أرز ولبن ولحم! كلها بين يدي لتسد جوعي، لي وحدي، شكراً لك يا الله!

شكرتُ الفتاة وقبل أن أغادر أمسكتْ بيدي، ووضعتْ نقوداً وهي تقول: اعتني بنفسك، واحرصي على أخيك.

أحمد، ليتك كنتَ هنا لتحظى بهذه الوجبة الفاخرة معي، نظرتُ إلى النقود في يدي، فكانت عشرة دنانير، لم أكن لأحلم بمبلغ كهذا، عادتْ الفتاة إلى منزلها قبل أن أشكرها، ولكنني أشعر بها، وبما فعلتْ من أجلي، أعانها الله، وبارك لي في هذا الطبق الشهي.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والعشرون | أحمد

إلى متى سأظل هنا؟ وماذا ينتظرون؟ أليس من المفترض أنني الآن لا أحمل أي تهمة؟ أليس من المفترض أن أكون حرّاً طليقاً منذ الصباح؟

لقد حلّ الليل وليس من مبشّر، نهضتُ إلى نافذة السجن وطرقتها إلى أن فتح الحارس النافذة، سألتُه: لماذا تحبسونني؟ ألم أقضِ عقوبتي وحُلّتْ قضيتي؟

ابتسم الحارس وقال: أنت من أطفال الشوارع، سيكون المجتمع بخير وأنت هنا.

أزعجني ما سمعتُ: أنا لستُ من أطفال الشوارع! أنا مسافر ليس إلا، ولن أسبب المتاعب لأحد.

ابتسم ينظر إليّ: وجودك هنا دليل كاف.

أغلق الشرطي النافذة، فطرقتُ الباب مراراً بانزعاج: هذا ليس عدلاً! يجب أن أخرج! لقد قضيتُ العقوبة! أخرجوني!

ابتعد السجناء عني، يبدو أنهم كانوا يعلمون التالي، فقد فتح الحارس الباب لشرطيين طويلين، قاما بسحبي إلى الممر وألقيا بي أرضاً، وبدآ بضربي وركلي، لقد أوسعاني ضرباً.

أخيراً أعاداني إلى الزنزانة، ألقيا بي كجثّة وقد تورمت عيني،

وانكسر سنّي، وتركتْ أقدامهما آثاراً عميقة في جسدي، كان ذلك مؤلماً، ولكن هل أسكتُ؟ هل أظل حبيس هذه الغرفة؟

رفعتُ جسدي بصعوبة، وعدتُ إلى النافذة من جديد، وقلتُ: ألم يكفكم هذا؟ ماذا تريدون بعد؟

فتح الحارس النافذة منزعجاً، فكان لابد من الضرب أن زرع الخشية في نفسي، ولكنه لم يفعل، قال: أين والدك؟

والدي، والدي، والدي! أجبتُ والدم يغلي في رأسي: ليس لديّ أب.

أخيراً نطقتُ بها، كم بدتْ كلمة مألوفة، هل كنتُ أؤمن بها طول الوقت دون أن أدري؟ ألم يكن كل ما جرى بسببه هو؟ ألم يجلب لنا شؤم أيامنا بيده؟

قال الحارس: تصمتُ وإلا ضُربتَ ثانية.

سألتُ: كم مرة عليّ أن أُضرَب قبل أن أخرج؟

شعرتُ أن الحارس بدأ يشتاظ غيظاً، أجاب: أكثر مما تتصوّر.

قلتُ بكل ما أوتيتُ من قوة: فلنباشر إذن.

انزعج الحارس وأغلق النافذة بعنف، ولكنه لم يفتح الباب، يبدو أنه قد يئس، ولغرابة الأمر سمعتُ أصواتاً تهتف من ورائي،

التفتُّ فإذا بهم السجناء يصفقون ويهتفون، اقترب أحدهم مني وقال: أنت صبي شجاع، تعال نغسل جراحك.

لم أعد أفهم شيئاً، هذا مجتمع غريب، لوهلة كانوا يتكالبون عليّ، والآن يساعدونني ويغسلون جراحي، ويضمدون إصاباتي!

لساعة كاملة لم أسمع فيها سوى التهاني والأغاني والهتافات، جروحي مطببة وثيابي نظيفة وشعري مصفف، وجُمِع لي الطعام والشراب، وجلستُ أمتّع نفسي، بضع ضربات تستحق هذا العناء.

وأخيراً فُتح الباب، وبدلاً من أن أخرج إلى العالم الخارجي نُقلتُ إلى زنزانة أكبر، كانت قد بُنيت تحت المركز، إنها تنزل بعمق تحت الأرض، أشعر بضيق في صدري، إنها خانقة! كيف استطاعوا بناء شيء كهذا؟

دخلتُ مع مجموعة من زنزانتي السابقة، ولعجبي فقد هتف جميع من في السجن الجديد مرحبين بي، يبدو أن الأخبار تنتقل بسرعة حتى بين المساجين!

سار كل شيء على أفضل ما يرام في الأسفل، طعام وشراب ورداء، وليس هنا من يؤذيني، ولكنني ما زلتُ أحلم بالعالم الخارجي، أريد أن أطمئن على هالة بأي ثمن.

■ الفصل السادس والعشرون | هالة

كنتُ دائماً أتناول الحلويات دفعة واحدة، وقد حاولتْ والدتي مراراً أن تثنيني عن ذلك، وأن تعلّمني أن أقتسم منها وأخبئ منها لحين آخر، ولكنني لم أفعل، فقد كنتُ أخشى أن يأكلها أحمد.

اليوم... بتُ أحرص على أن أخبئ ما أحصل عليه من طعام، بل وكنتُ أوفّر منها لأحمد، فقد يكون جائعاً الآن، ومن يدري متى وأين نلتقي.

تناولتُ جزءاً بسيطاً من الأرز، وقطعة صغيرة من لحم الدجاج الشهي، كان دسماً ومطهياً بعناية شديدة، رحم الله أخاك، وصبّرك على فقدانه.

يا رب احمِ لي أحمد، وأعده لي سالماً.

الآن حان وقتُ البحث عن مكان للنوم، هذا المساء غير ممطر، أو على الأقل إلى الآن، ولكن الليل بارد دائماً، وهذه الزاوية من المدينة جديدة عليّ.

لستُ أدري عمّ أبحث، أكان يتوجب عليّ أن أطلب من الفتاة مكاناً أنام فيه؟ لا أظن أنها فكرة حسنة، فهم في حالة فوضى، عليّ فقط أن أتابع السير، علّي أجد حديقة صغيرة، أو متاجر متراصّة

أستطيع أن أنام في زواياها.

الليل مخيف، لم أكن أشعر بهذا الخوف عندما كان أحمد إلى جواري، هل تراه حُرّ أم سجين؟ أرجو أن يكون بخير أينما كان.

توقفتُ عن المسير، ونظرتُ إلى زاوية الطريق، هناك مسجد صغير، مرّ زمن ولم أر فيه مسجداً! بل لا أذكر آخر مرة سمعتُ فيها صوت الأذان! ها هو ما كنتُ أبحث عنه.

وصلتُ البوابة، فكان المكان مضاءً في الداخل، فتحتُ أحرص على ألا أسبب أي إزعاج، فكان في الداخل شيخ كبير السن، ذكّرني بالحاج غانم.

كان وحده هناك، يرتدي قبعة بيضاء فوق شعره الأبيض الخفيف، وثوباً أبيض، يجلس حاملاً المصحف تجاه القبلة، يبدو أنه شيخ المسجد.

شعر بريح باردة تدخل من الباب، فنظر تجاهي، ورأيتُ في عينه دهشة لما رآني، فلم يتوقع زائراً في سنّي في هذا الوقت من الليل.

أغلق المصحف ووضعه على الرف، ثم اقترب مني ولاحظ اتساخ ثيابي، وطبق الطعام الذي حاولتُ أن أخبئه دون جدوى، وسألني: هل من مكروه يا صغيرتي؟

أجبتُ بسؤال: هل أستطيع أن أبيتَ الليلة هنا؟

سألني: وأين منزلك؟

أجبتُ: إنه في مدينة أخرى، ليس لدي منزل هنا.

سأل: وأين والدك؟

أجبتُ: في مدينة أخرى كما قلتُ.

سأل: هل أنتِ وحدك؟ هل تريدين العودة إلى المنزل؟

أجبتُ: لا أريد العودة إلى المنزل، كل ما أريده ليلة أنامها هنا، وأحتمي من البرد خلف جدران المسجد.

فكّر في الأمر، ثم سأل: هل أخبرتِ الشرطة بحكايتك؟

كان الخوف بادياً عليّ، وارتجفتُ لسماعي اسم الشرطة، قلتُ: لم تساعدني الشرطة، بل على العكس.

فضّلتُ عدم الإطالة في الشرح، علّه يكون رجلاً فاضلاً ويسمح لي بالمبيتُ هنا لليلة واحدة على الأقل، حمل هاتفه المحمول واتصل بشخص ما، رجوتُ ألا تكون الشرطة! تراجعتُ قليلاً إلى الوراء وتوقفتُ عندما سمعتُه يقول: آسفٌ لإيقاظكِ، هل تستطيعين المجيء؟... هناك ضيف... واجلبي معك ثياباً لفاطمة... مع السلامة.

أغلق هاتفه وقال لي: ستحضر زوجتي لتساعدك، اجلسي واستريحي قليلاً.

وثقتُ بكلامه، وجلستُ في الزاوية إلى أن حضرتْ زوجته، كانت كبيرة في السن أيضاً، ولكن ذات صحة جيدة، تلف رأسها بشال مشمشي وعباءة بنية، وتحمل معها كيساً.

رحّب بها زوجها، واقتربتْ مني ومدّتْ يدها إليّ لأنهض وأتبعها إلى الحجرة الخاصة بالفتيات، ففعلتُ.

كان المسجد مقسماً إلى قسمين، قسم خاص بالرجال مع الإمام، وقسم مُلحق للنساء، كلاهما بني على نفس الطراز، ولكن الفرق كان في المساحة، فملحق النساء كان أصغر، ومدخله خلفي بعيد عن الشارع العام، يفصله عن جزء الرجال سياج خشبي مزركش، يطل بفتحاته الزخرفية على قسم الرجال.

أخرجتْ ثياباً نظيفة من الكيس، وساعدتني في استبدال ثيابي، كان الثوب الجديد أزرق اللون، تزينه زهور بيضاء لطيفة، عبارة عن فستان بقطعة واحدة، كان ناعماً وجميلاً، والأهم من ذلك أنه كان نظيفاً.

أخذتْ ثوبي الآخر لتغسله في منزلها، وبحكم العادة تفحصّتْ جيوبه لألا يكون فيها ما يتلف في الغسيل، في هذه اللحظة تذكرتُ العشرة دنانير! أسرعتُ بأخذ الثوب من يدها، انتزعتُه منها بعنف

مما أثار استغرابها، قلتُ: لا أريد أن يأخذه أحد.

ابتسمتْ وقالتْ: كنتُ سأغسله لك وأعيده، لا تقلقي فلن نأخذه.

كنتُ أعلم ذلك، ولكن العشرة دنانير كانت كنزاً بالنسبة لي، فلم أقل شيئاً، وبان أنني أشك في صدق كلامها، ولكنها لم تأبه بذلك، بل طلبتْ إليّ أن أناولها طبق الأرز، فسكبته في علبة بلاستيكية، وأغلقته بغطاء خاص بالعلبة، فبات محفوظاً بشكل يسهل حمله وتناوله في أي وقت، كان ذلك مفيداً جداً.

سألتني السيدة عن حكايتي، ولكنني لم أشأ أن أقص عليها أي شيء، كنتُ متعبة وأريد أن أنام فحسب، فهمتْ ذلك بسرعة، وجلبتْ غطاء دافئاً، كان هذا كل ما أريد، لففتُ نفسي بالغطاء وغرقتُ في نوم عميق على الفور.

كانت هذه أهدأ ليلة منذ أيام، بل ربما أسابيع أو أشهر، لم أعد أميز، لقد نمتُ تحت غطاء دافئ وثياب نظيفة ومعدة ممتلئة، ليتني أستطيع أن أفعل ذلك كل ليلة!

فتحتُ عيني، كنتُ ما أزال في زاوية المسجد، صوتُ الأذان كان يعم المكان، أي أذان هذا؟ أهو الفجر؟ لماذا انقطع صوتُ الأذان عن مسامعنا طوال الرحلة؟ ألا تكثر المساجد في هذه المدن؟

كانت قريتنا بعيدة عن المدينة، لذلك لم يصلها صوت الأذان، ولكنني كنتُ أسمعه أيام الدراسة، كل زاوية في المدينة كانت تسمع الأذان خمس مرات في اليوم، كما تعلّمنا الصلاة في المدرسة، كانت أياماً جميلة، ترى كيف كانت ستكون أحوالنا إذا ما كنا تابعنا تعليمنا هناك؟ لربما كنت أصلي الآن بانتظام، أو حفظتُ أجزاء كثيرة من القرآن، ولكنني لا أذكر أنني رأيتُ زوجة أبي تصلي، لم تكن تحثنا على ما يتعلق بصلاح ديننا، مضحك ما أفكر فيه، فهي لم تكن تفكر في صلاح أي زاوية من حياتنا.

ترى ماذا تفعل الآن؟ لابد أنها سعيدة بالتخلص منا، ولكنها لابد حزينة أنني لم أتزوج العجوز الغني، فقد ضاعت الصفقة الثمينة في ليلة وضحاها، والآن هل ستعمل كل الأعمال التي كنا نقوم بها أنا وأحمد؟ كم أنا ساذجة، لابد أن المنزل امتلأ بالخدم في صباح اليوم الذي غادرنا فيه، لابد أنها تعيش الآن كملكة.

رفعتُ جسدي، بما أن زوجة أبي بعيدة عن نظري، فيجب أن تكون بعيدة عن عقلي، لن أفكر بأبعد مما أرى، وما أراه الآن هو جدران المسجد النظيفة، ورفوف المصاحف، ومبرّد الماء، والسجّاد الناعم، إنه أجمل مكان، صوتُ الأذان كان عذباً، ورائحة البخور تعم

المكان، أريد أن أظل هنا، أنام وأستيقظ هنا... إلى الأبد.

نظرتُ إلى زاوية المسجد، فكانت زوجة الشيخ ما تزال هناك، ترفع يدها تضرّعاً إلى الله، أريد أن أفعل ذلك أيضاً، هناك الكثير مما أريد، أحمد... يا رب، أعِد لي أحمد.

كنتُ أرفع يدي خجلاً، لم أقم بما يستحق الاستجابة، ولكن... يا رب، أنت الكريم، ونحن ضِعاف، أعِد لي أحمد فهو كل ما أملك.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والعشرون | أحمد

لستُ أدري كم يوماً مرّ عليّ في السجن، فالليل يشبه النهار، وليس من منفذ يدخل ضوء الشمس، الجو كئيب جداً، وليس من شيء أفعله.

معظم المساجين يلهون بأوراق اللعب، إنهم يراهنون، لستُ أدري بم يراهنون وهم في السجن! إنهم لا يملكون شيئاً، أظنها طباع في البشر لن تتغير.

هنا رهان على وجبة الغداء، وهناك رهان على الثياب، وخسارة تلو خسارة، إلى متى يتقبلون الخسارات؟

ولكن في الزاوية الأخرى رهان من نوع آخر، هناك شيك بمبلغ حقيقي وُضع على الطاولة، إنهم يراهنون بنقودهم في الخارج، بماذا ينفعهم ذلك يا ترى؟ أهو تخطيط للمستقبل؟

أشار إليّ أحدهم بالاقتراب، حضرتُ فأشار إليّ أن أجلس وأقامر، أجبته: ليس معي ما أقامر به.

قال: سأقرضك نقوداً، إذا ما ربحتَ بها أعدت أرباحها إليَ.

سألتُ: وإذا ما خسرتُ؟

قال: نلعب إلى أن تربح.

أشـرتُ بـالنفي، لم يكـن عرضـاً مغريـاً علـى الإطـلاق، فقـد استشعرتُ روح العبودية إلى آخر العمر، ولكنـه أصرَ علـيَ قـائلاً: لا تعطني الأرباح، فقط أعد إليّ المال نفسه.

أجبتُ: أنا آسف، ولكنني لا أقامر.

قال: ألا تريد أن تخرج من هنا؟

ما علاقة الخروج من السجن بالقمار؟ ولكنه قال: إذا ما ربحـتَ بعض المال تستطيع أن تفدي نفسك به وتخرج.

قلتُ: حقاً؟ أهو المال الذي ينتظرون؟

ضحك وقال: وماذا تظن؟ الدنيا تسير بالمال.

عليّ أن أدفع لهم لكي أخرج، من أين لي بالمال؟ القمـار، ولكنـه مال حرام! كيف لي أن أحصل على مال؟

قال: علمتُ أنك اتهمتَ بالسرقة، ألستَ تملك مـا تفـدي نفـسك به؟

أجبـتُ: لم أسـرق مبلغـاً كـبيراً، ولـيس معـي مـال، ولم أقـصد السرقة.

ابتسم وقال: شاب شريف، أنتَ هنا بمحض المصادفة.

ربما، سألتُ: ألا تكسبون المال هنا بأسلوب مختلف؟

رنَت كلماتي عائدة إلى أذني، أسلوب مختلف أجمع فيه المال... سألته على الفور: هل تعطيني كأسك؟

هكذا جمّعتُ ثلاثة كؤوس، وخبّأتُ زر قميصي تحت إحداها، وبدأتُ ألفها بسرعة إلى أن انتبه عدد من القريبين إلى ما أفعل، اجتمعوا وبدؤوا اللعب، وفي كل مرة لم يكن يحزر أحد الكوب الصحيح، هكذا ازداد الجمع، واتقد المكان حماسة، وكان عليّ أن أزيد من مهارتي، وأن أحرص على إخفاء الزر جيداً.

أيضاً لم يُصِب أحد، ابتهج الجميع وتحمسوا، ووقف أحدهم بثقة ليُسكِت الجميع وينفرد باللعبة، صمتَ الجميع وركزوا، يمين ويسار، يمين ويسار... أين الزر؟

ركّز الرجل كما ركّز الجميع حوله، قال أحدهم: الأيمن، فقال آخر على الفور: أبداً الأيسر، ولكن الرجل صرخ فيهم ليصمتوا، كان عليه أن يجد الكأس بنفسه دون تشتيت، دعوتُ الله من كل قلبي ألا يحزر الكأس الصحيح، وكان كذلك، فقد اختار الكأس الخاطئ، وانفجر السجن بالضحكات، ووضع الرجل نقوداً في الكأس كما تبعه معظم الرجال، لقد حصلتُ على النقود.

خمسة، عشرة، عشرون، خمسون، دينار، دينار وعشرون،

دينار وستون، دينار وثمانون قرشاً، لقد حصلتُ على دينار وثمانين قرشاً، نظرتُ إلى الرجل الذي أشار إليّ بأن أفدي نفسي مسبقاً وقد كان ينظر إليّ أعدّ النقود، قلتُ: الآن أفدي نفسي.

في البداية لم يقل شيئاً، ولكنه ابتسم بعد حين، واقترب مني ووضع ذراعه حول عنقي وقال: دينار وثمانون قرشاً تفدي بها نفسك، هل أنت دجاجة؟

سألتُ: وكم أحتاج لأفدي نفسي؟

أجاب: مئة دينار على أقل تقدير.

فُجعتُ بما قال: مئة! ولكنني لم آخذ سوى خمسة دنانير! فلماذا أفدي نفسي بمائة.

تفاجأ الرجل: خمسة دنانير! ولماذا أنت هنا؟

أجبتُ: لأنها لم تكن لي.

كان واضحاً أنه لم يصدق الحكاية، فسألني عما جرى بالتحديد، فأخبرته عن الكرت الذي وجدته في الحديقة، وأنني قد صرفتُ منه مبلغ خمسة دنانير.

قال: المشكلة ليست بالمبلغ، إنه الكرت، على كل حال لا تفكر في الفداء قبل أن تحصل على مئة دينار.

ومن أين لي بمائة دينار؟ بحسابات بسيطة كهـذه ربمـا أحتـاج إلى خمسين يوماً لتجميعها في أحسن الأحوال، لا أستطيع أن أنتظر كـل هذا الوقت، هالة... ماذا تفعلين؟

■ ■ ■

■ الفصل الثامن والعشرون | هالة

كانت أمي تـصلي الـصلوات في أوقاتهـا، وكانـت تحـب أن تقـرأ القرآن في الفجر قبل أن تخرج إلى المزرعة، أذكر أنها حاولـتْ تعليمنـا الصلاة بشكل بسيط، كما تعلمنا في المدرسة الوضوء والـصلاة، فلمـاذا لم نواظب عليها؟

راقبتُ زوجة الشيخ تصلي، أريد أن أسألها عـن كيفيـة الوضـوء والصلاة ولكنني خجلة، فتاة في عمري عليهـا أن تعـرف تمامـاً كيفيـة الصلاة!

أغلقتْ المصحف والتفتت إليّ، طأطأتُ رأسي لما كانتْ تحمل مـن خجل فيما يتعلق بأمور الدين، ولكن المرأة اقتربتْ وسألتني: هل أنـتِ من عائلة مسلمة؟

إنه سؤال يسبق الصلاة بكثير، أجبتها: نعم، وهل هنـاك غـير المسلمين هنا؟

ابتسمتْ وقالتْ: أنتِ لستِ من هذه المدينة، الإسلام لـيس ديـن الأغلبية هنا.

حقاً، لذلك تندر المساجد هنا، بل لا أذكـر أنـني سمعـتُ صـوت الأذان منذ مدة، هـذه مدينـة لا تعـرف الإسلام! سـألتُها: ألا يحـضر

المسلمون ليصلوا هنا؟

أجابتْ: بلى، يصلون هنا، وغالباً ما يكون عددهم أكثر في صلاة الظهر من يوم الجمعة، ولكنهم لا يتجاوزون العشرات.

قلتُ: في مدينتي يجتمع المئات في صلاة الجمعة.

قالتْ: أحب أن أذهب إلى هناك لأمتع نظري بذلك المنظر.

كان منظراً مهيباً، ولكنني لم أكن أظن أنني محظوظة، بعض الأشياء لا تعرف قيمتها قبل أن تفقدها، وصوتُ الأذان، مرّ زمن طويل ولم أسمع كلماته العذبة.

قالتْ: هل تصلين الفجر إذن؟

أشرتُ بالإيجاب، ونهضتُ بارتباك، أرجو ألا تحضر معي إلى المغاسل، فسأحرج جداً إذا ما أخطأتُ في خطوات الوضوء! بل ربما تظن أنني كاذبة ولم أحضر من مدينة مسلمة!

لحسن حظي فقد أرشدتني إلى البوابة فقط، وانتظرتْ في الخارج، فتحت الصنبور وبدأت أتذكر خطوات الوضوء بهدوء، كيف لي أن أنسى الوضوء الأول مع والدتي، كيف أنسى يدها الناعمة تداعب وجهي المبتل، كيف لي أن أنسى دعاءها، أغمضتُ عيني وتخيلتُ والدتي إلى جواري، بعد البسملة غسلتُ يديَ ثلاث مرات، تمضمضتُ

ثم استنثرتُ، بعدها مسحتُ وجهي وبعده أذني وذراعيَ، وأخيراً مسحتُ قدميَ، ثلاث مرات لكل خطوة، وأخيراً رفعتُ يدي بالدعاء.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، لقد تذكرته.

يا رب احم أحمد، وأعده لي سالماً، قلتها والخجل يلفني، تذكرتُ الصلاة متأخرة، وطلبتُ من الله الكثير، ولكنني ضعيفة وهو الأعلم بي.

رجعتُ حيث كانت زوجة الشيخ تنتظر، جلبتْ معها ثياباً للصلاة من الحجم الصغير، كان يناسبني، وأخيراً بدأتُ أصلي.

هكذا تعلمتُ الصلاة قبل خمس سنين، حاولتُ المواظبة عليها لسنة، وتوقفتُ يوم ماتت والدتي، واليوم أقف من جديد لأعيد الذكريات، لا بل لأتابع ما بدأتُ منذ سنوات، الصلاة في أوقاتها.

دعوتُ كثيراً في كل ركعة، يا رب ارحم أمي، يا رب أعد لي أحمد، يا رب فرّجها علينا، اهدنا الطريق الصحيح، نحن بحاجة إليك وحدك...

أنهيتُ الصلاة وفتحتُ المصحف، كنا قد تعلمنا في المدرسة بعض السور من الجزء الثلاثين، ولكنني لم أكن قد قرأتُ شيئاً من الأجزاء

الأخرى، هناك الكثير لأقرأه، هل أستطيع أن أخصص وقتاً لذلك؟ هل ستسمح لي الظروف بالمتابعة أم أنها ستحرمني حتى لذة التواصل الروحانية هذه؟

فتحت المصحف وقرأتُ من الجزء الثلاثين حيث كنتُ أذكر بعض السور، الناس، الفلق، الإخلاص، المسد، النصر، الكافرون... كلها تعيد الذكريات السعيدة. كما استمريتُ في القراءة إلى سور لم أكن قرأتها من قبل، وأمضيتُ ساعة على هذا النحو، نسيتُ فيها ما كان في الخارج من البرد والمطر والضياع، هذا منزلي.

■ ■ ■

■ الفصل التاسع والعشرون | أحمد

مئة دينار، مئة دينار! من أين لي بكل هذا المال؟

لا أستطيع أن أجمعه، ولا أستطيع أن أقترضه، ولا أريد أن أقامره، ماذا عساي أن أفعل؟

إلى متى سأظل هنا؟ لقد مضى أكثر من أسبوع، صحيح أن الطقس دافئ، والثياب نظيفة، الفراش جيد، والطعام متوفر، إلا أنني وحدي، وبين أناس لا يمكن أن آمنهم، كما انقطعتْ كل أخبار هالة، ترى كيف هي الآن؟

لمعتْ في مخيلتي صورة هالة تنام تحت المطر بين أشجار الحدائق، وتطلب الطعام والمعونة من الناس، يجب أن أخرج من هنا، يجب أن أخرج بأي وسيلة.

اقترب مني ذات الرجل الذي اقترح عليّ الفداء، وسألني: ألن تلعب اليوم؟

أجبتُه: قلتُ لك مسبقاً أنني لا أقامر.

قال: أعني الكؤوس.

لم تكن لعبة الكؤوس تجلب الكثير من المال، ولكنها جلبتْ السعادة والإثارة للجميع، نهضتُ وجهّزتُ الطاولة والكؤوس في

منتصف الصالة كما فعلتُ البارحة، أخذتُ نفساً عميقاً، إنني أحب هذه اللعبة، وأريد أن ألعبها حتى بمبلغ صغير.

اجتمع عدد أكبر من البارحة حولي، وبدأنا اللعب، يمين يمين يسار يسار يمين، أين الزر؟

لم يفلح الأول، ولا الثاني ولا الثالث، وازدادت الإثارة، يسار يمين يمين يمين يسار، لا أحد يستطيع مجارات ما أفعل، لقد أصبحتُ ماهراً في تحريك الكؤوس.

اقترب الرجل الذي كان ينصحني، ووضع كرسياً أمام طاولتي، ووضع مئة دينار على الطاولة وقال: ثلاث محاولات.

نظرتُ إلى النقود، إنها بالضبط ما أريد وهو يعلم ذلك، نظرتُ إليه أشك فيما يفعل، ولكنه قال: إذا ما حزرتُ واحدة من ثلاثة أسترد النقود، إذا حزرتُ اثنتين تلعب اليوم بالمجان.

سألتُه: وإذا ما حزرتَ الثلاثة؟

أجاب: نمنعك من جمع المال من هذه اللعبة إلى الأبد.

ارتفع ضجيج في المكان، واقترب أناس أكثر، فقد بات الوضع أكثر جدية، أن أُحرم من جمع المال يعني أن أبقى حبيساً هنا! إنني أبيع حريتي، ولكن... إذا ما ربحتُ فسأكسب حريتي في لحظة!

مهلاً... لقد لعب اللعبة من قبل ولم يسبق له أن حزر الكـؤوس، لـيس من داعٍ للقلق، ولكن ماذا إذا ما حزرها اليوم؟ لا يا أحمد كُفّ عن هذا، تستطيع أن ترفض العرض الآن وينتهـي الأمـر، وأعـود لكـسب بـضعة قروش! وأظل هنا...

قال: ماذا قلتَ؟ هل تقبل؟

الحريّة، لم تكن يوماً مطلباً سهلاً علينا، أجبتُ: نعم.

ارتفعت أصوات التشجيع والرضـا مـن الجميـع، ووضـعتُ يـدي على الكؤوس أحاول أن أكون أكثر مهـارة مـن ذي قبـل، ومـا إن بـدأتُ تحريكها حتى ساد الـصمتُ بـسرعة، وركّـز الجميـع علـى الكـؤوس، يمين ويسار، يمين ويسار، يا رب ساعدني.

يـسار يـسار يمـين يمـين، أوقفـتُ الكـؤوس، وشـعرتُ بـالعرق يتصبب من جبيني، إذا ما حزر أول كأس أكون في مشكلة حقيقية.

صمتٌ مطبق، لم أعهده من قبـل في الـسجن، لم يقـترح أحـد أي إجابة، الجميع ينظر إلى الرجل وهو يحاول التركيز والاختيار، ربمـا لا أعرف الرجال هنا، ولكنني الآن أكتشف أن هذا الرجل له شأن بـين السجناء.

رفع يده، واقترب من الكؤوس، أي منها سيختار؟ يـا إلهـي... يا إلهي...

وضع يده على الكأس الأيمن، ورفعه بحركة سريعة... لا شيء، لم يكن الكأس الصحيح.

صدرتْ صيحة عالية، وتصفيق شديد، ابتسم الرجل وأعاد الكأس بينما كشفتُ عن الكأس الأوسط، فكان الزر هناك، ارتاح بالي، على الأقل لم أعد مديناً له باللعب دون نقود! وتبقى الآن مرتان.

أعدتُ الكؤوس إلى ترتيبها، وبسرعة بادلتها يميناً ويساراً، يساراً ويميناً، عليّ أن أكون الأفضل، قد أصبح حراً بعد لحظات، يسار... يسار... يسار... يمين...

هدوء، رفع الرجل يده إلى الكأس الأوسط، ثم غيّر رأيه إلى الكأس الأيسر، ولكن الزر كان تحت الكأس الأيمن، ضحك الجميع، وأعدتُ الزر لأبدأ الجولة الثالثة.

الجولة الثالثة قد تكون الأصعب، إنها حاسمة، ها هي ذي المائة دينار على الطاولة، حقيقة واقعة أمام عيني، لعبة واحدة وأصبح حراً، يا إلهي ساعدني.

يمين ويسار، يمين ويسار، بسرعة أكبر، أكبر، إلى الحرية، إلى هالة...

رفع الرجل يده وبحركة سريعة كشف عن الكأس الأيمن، فلم

يكـن الـزر هنـاك، ضـج المكـان بالتـصفيق حتـى قبـل أن أرفـع الكـأس الصحيح عن الزر، ودُقّتْ الطبول، وألقى الجميـع بالمناديـل والأوراق في الهواء، إنه احتفال، احتفال فوزي، احتفال حرّيتي.

نهض الرجل من على الكرسي، وصافحني قائلاً: النقود لك، فأنت تستحقها.

شكرته، رغم أنني كنتُ للحظات أرجف بسبب الاتفاق، ولكنـه أضاف: كنتُ أعلم أنك قادر على فعل ذلك.

ثم أشار إلى الشرطي، فحملتُ النقود بسرعة وركضتُ تجاهه، الحرية... الحرية... هالة...

■ ■ ■

■ الفصل الثلاثون | هالة

أمي...

ها أنا أمضي الأيام والليالي في المسجد، بثياب نظيفة، وطعام منزلي، أحتمي من المطر والشمس، أنام قريرة العين إلا من فكر واحد، أحمد...

لقد انقطعتْ كل أخبار عنه، مضى أكثر من أسبوع، ترى ماذا حلّ به؟ وأين هو؟ وكيف لي أن أجده؟

لم أفلح في التردد على المراكز الأمنية، فماذا أفعل؟ وإذا ما كان قد خرج من السجن فأين له أن يجدني؟

يا رب، اجمع شملنا.

هكذا أمضيتُ الأيام الماضية، أعتني بالمسجد وأصلي، وأنام فيه، أما الطعام فكانت زوجة الشيخ تشاطرني وجبة الطعام العائلية، فكنتُ أنام قريرة العين، آمنة شبعة دافئة.

أتمنى لو كان أحمد هنا، لو كان حاله مثل حالي، ترى هل يأكل في السجن؟ هل ثيابه نظيفة؟ هل المكان دافئ هناك؟

كنتُ أراقب الناس من حول المسجد، ومن يدخلون ويصلون، لم يكن العدد كبيراً، بل كانوا أفراداً معينين يحضرون كل يوم، يبدو

أنهم يسكنون بالقرب من هنا، فلابد أن تكون هناك مساجد في أماكن أخرى.

كنتُ أجلس الساعات الطوال أركّز في الناس، أركّز في أعمالهم ووجوههم، إلى أن بتّ أعرف الجميع، وأميّز علاقاتهم فيما بينهم.

أحياناً كنتُ أساعد زوجة الشيخ في التبضع، كنتُ أحب هذا العمل جداً، حيث نخرج إلى المجمّع، ونتجوّل بين البضائع، أطعمة كثيرة وحلويات، نمضي هناك وقتاً جميلاً ثم نعود.

واليوم جلس الشيخ إليّ يسألني مجدداً عن حكايتي، حيث تيقّن أن أحداً لن يحضر للبحث عني، فأخبرته ما كان من زوجة أبي، وكيف هربتُ مع أحمد إلى أن أمسكته الشرطة، وأخبرته أنني لا أعرف مكانه الآن.

قال الشيخ: هل يرضيك أن أبحث عنه في المراكز الأمنية بنفسي؟

أجبتُ: يرضيني أي شيء يجمعني بأحمد.

وبدأ الشيخ يتردد على المراكز يسأل عن أحمد، ولكنه لم يجده في أي منها، ظننتُ في البداية أن صغر سني كان الحائل دون وصولي إليه، ولكن لا يبدو ذلك صحيحاً.

اشتد حزني وقلقي على أحمد، فلم يهتد الشيخ لمكانه، أين أنت يا أحمد؟

أخيراً بعد عشرة أيام عرض عليّ الشيخ أن أنضم إلى عائلته، وأن أنام في منزله بين أولاده، ولكنني تعلّقتُ بالمسجد، وبتّ أحب أن أنام فيه، فقد كنتُ في أمس الحاجة إلى تلك الأحاسيس الرفيعة التي تربطني بالخالق وحده، هو من أثق به وحده.

هكذا انقضت أيامي بين صلاة وتسوق ودعاء وتنظيف، وكل ما أفكر فيه كان أحمد، أرجو أن يكون بخير.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والثلاثون | أحمد

الحريّة...

أخيراً أصبحتُ حرّاً، إنها حقيقة واقعة، إنـني أسير في أرجـاء المدينة، أتجول هنا وهناك، ليس هناك من يتـبعني، لـيس هنـاك مـن يتربص بي، إنني ببساطة حر.

فوق ذلك فإنني أملك بعض المال من اللعب في الـسجن، اتجهـتُ إلى مخبز تفوح رائحة الخبز الطازج الـساخن منــه، اشـتريتُ رغـيفين وجبنة صفراء، إنها ألذ وجبة تناولتها منذ أسابيع.

جلـستُ في إحـدى الحـدائق أستنـشق الهـواء العليـل، أحـاول استجماع أفكاري، أين يمكن أن تكون هالة؟

لقد مضى أكثر من أسبوع علـى فراقنـا، تـرى أيـن تنـام؟ ومـاذا تأكل؟ وهل تدبّرتْ أمرها وحدها؟

الحياة ليست بسيطة في المدن، كيف لها أن تصمد وحدها؟

ارتسمتْ في مخيلتي صور فظيعة، لا... لا يجب أن أفكر هكذا، لابد أن هالة كانت قوية، لابد أنها علـى مـا يـرام، ولكـن أيـن لـي أن أجدها؟

بقيتُ أفكر لساعات، لو كنتُ وحدي أين كنتُ سأذهب؟

حاولتُ أن أضع نفسي مكان هالة، وحاولتُ أن أفكر بطريقتها، عندما دخلتُ السجن كانت ستلحق بي، كانت ستحضر إلى السجن، ولابد أنها فعلتْ، ولكن بعد أن ظنّتْ أنني لم أكن هناك أين تذهب؟

ستحاول البحث في مركز شرطة آخر، أين مراكز الشرطة هنا؟

بدأتُ البحث بهذه الطريقة، سألتُ عن مراكز الشرطة واتجهتُ إليها واحداً تلو الآخر، أسأل عن فتاة في مثل عمري حضرتْ وحدها تبحث عن أخيها، ولكن لم يسعفني أحدهم بأي دليل.

كأنني أبحث عن إبرة في كومة قش، أين أنتِ يا هالة؟

لم تكن تملك النقود، فمن أين لها بالطعام؟ هل تسوّلتْ؟ هل ابتعدتْ عن هنا كثيراً؟ هل كانتْ قادرة على المسير ومغادرة المدينة؟ لا أظن ذلك، صحيح أن مدة أسبوع كافية لمغادرة المدينة، ولكن هالة لن تغادر مدينة تعلم أنني ما أزال فيها.

إذن فلو افترضنا أنني بقيتُ أتجول هنا وهناك، وهي كانت تتجول أيضاً، لربما اجتمعنا مصادفة، بل لابد أنها تتردد على الحدائق كما كنا نفعل.

تجولتُ من حديقة إلى أخرى، وجلستُ في كل واحدة منها نصف يوم، وقضيتُ الليل في الزقاق كما كنتُ أفعل مع هالة، وقد كان الطقس

قد تحسن عن ذي قبل، ليس من أمطار غزيرة أو تغير كبير في الحرارة، ولكن الأيام تمضي دون أي أثر لهالة!

مضتْ خمسة أيام على هذا الحال، ولم أرد أن أفكر بأي مكروه قد أصابها، عليّ الآن أن أوسع نطاق البحث.

قررتُ أن أبتعد عن هذه المنطقة بعض الشيء، فركبتُ حافلة عامّة، وجلستُ فيها أحسب ما تبقى معي من مال وما سيكلفني خلال الأيام المقبلة، بل فكّرتُ بما سنفعل بعد ذلك أيضاً.

توقفتْ الحافلة، وصعدتْ فتاة تقارب الثانية عشرة من العمر، ذات شعر أشقر مموج، وثياب جميلة وأنيقة، وقبعة رسمية، تبدو من طبقة رفيعة، بل ربما كانت من طبقة حاكمة.

ابتسمتُ أذكّر نفسي أن الطبقة الحاكمة لن تركب الحافلة، ولكن الفتاة كانت وحدها، ويبدو عليها الارتباك بعض الشيء، هل يُعقل أن تكون قد هربت؟

مشتْ بين المقاعد تبحث عن كرسي لتجلس فيه، نظرتُ حولي وكما ظننتُ كانت الحافلة ممتلئة، وليس من مكان تجلس فيه، هل ستظل واقفة؟

بدأتُ أسمع صوت همهمة، وبعض الضحكات الخفيّة، الجميع

يحدّق بها، وسائق الحافلة ينتظر ما ستفعل.

بدا الارتباك عليها، فليس من مكان تجلس فيه، نهضتُ وقدّمتُ لها مقعدي، فبان الارتياح عليها، وجلستْ مكاني، وتوقف الهمس في الحافلة، ولكن السائق نظر إليّ وقال: يمنع الوقوف في الحافلة، إما أن تجلس أو تخرج.

كم كان فظّاً، بما أنني لم أكن لأطلب من الفتاة أن تعيد مقعدي، آثرتُ أن أنزل من الحافلة، هكذا نزلتُ بهدوء دون أن أطلب حتى أن يعيد إليّ الأجرة، المهم أن تصل الفتاة بأمان إلى حيث تشاء.

وقفتُ في الطريق أنظر إلى الحافلة تغادر، أرجو ألا يحصل مع هالة مثل ما حصل مع تلك الفتاة، هذه مدينة لا ترحم.

تابعتُ السير في الطريق، لقد نزلتُ في نفس المنطقة تقريباً، لربما كان ذلك أفضل من الابتعاد، فما زلتُ أظن أن هالة لم تبتعد.

سرتُ في الطريق بين الحدائق، ولفت انتباهي مسجد بين المنازل، لم يكن يطل على الشارع الرئيسي، ولا أذكر أنني سمعتُ صوتَ الأذان مذ غادرنا مدينتنا، لماذا لا تؤذن هذه المدن؟

اتجهتُ تلقائياً إلى المسجد، شعور غريب ينتابني، أشعر أنني وجدتُ ما كنتُ أبحث عنه، منزل...

وصلتُ المسجد، ووقفتُ عند المدخل، مر زمن لم أصلّ فيه، هذا يذكرني بالحاج غانم، لقد كان يحثني على الصلاة، رحمك الله يا حاج.

اتجهتُ إلى المتوضأ، لا أظن أنني أذكر جيداً ما عليّ فعله، بدأتُ أشعر بالأسى، وزال عني الشعور بالطمأنينة كلما تذكرتُ أنني بعيد كل البعد عن المساجد والصلاة، يا رب سامحنا.

توضأتُ مقلّداً لرجل كان يتوضأ إلى جانبي، لا يبدو أن الكثيرين يحضرون إلى هنا، أذكر أن الأعداد في المساجد كانت كبيرة في مدينتنا، صحيح أن قريتنا كانت بعيدة، ولكن المدينة الرئيسية كانت تملؤها المساجد، وصوت الأذان لم يكن لينقطع.

دخلتُ المسجد، وسرتُ أنظر إلى العدد القليل، لا يبدو وقتَ صلاة، ما هو الوقت الآن؟ وأي صلاة سأصلي؟ أظن أن الوقت الآن بين صلاة العصر والمغرب، ربما...

على كل حال، أنا هنا لأصلي اعتذاراً لتقصيري، وأملاً في أن ألقى هالة، وأن تتحسن الأوضاع، ويستقر حالنا.

استقمتُ أستعد للصلاة، سأصلي ركعتين بهذه النيّة، وأوكّل أمري إلى الله.

■ ■ ■

■ الفصل الثاني والثلاثون | هالة

أذكر أنني كنتُ ألعب في المنـزل عندما خرج أحمد للعب مع القطيع، حلّ المساء دون أن يعود، وبحثنا عنه طويلاً، حتى أننا وصلنا إلى منزل الحاج غانم، ولكن أحمد لم يكن هناك.

بحثنا عنه في كل مكان، وكانت والدتي قلقة جداً، وقد لاحظتُ الدموع في عينيها، ولم أفهم وقتها ما كانت تشعر به.

في تلك الأيام كنتُ أكيدة أنني سألعب مع أحمد في الصباح، وفكرة الضياع هذه لم تكن في مخيلتي، حتى وإن لم نجد أحمد فهو سيعود بنفسه بكل تأكيد، فلماذا الخوف؟

اليوم بدأتُ أفهم خوف والدتي، وبات الضياع احتمالاً كبيراً، وفكرة أن يعود أحمد بهذه البساطة لم تكن خياراً.

اليوم بتّ أريد أن أشق الأرض لأجده، أن أصعد إلى السماء لأراه، أن أجوب الدنيا جيئة وذهاباً لأسمع أخباره.

يا رب، لم أعد أعرف ما أفعل، ها هي الأيام تمر بي وهي جيدة وسعيدة، ولكن قلبي مع أحمد، هل هو سعيد؟

حملتُ المصحف لأقرأ قليلاً إلى أن يحين وقتُ صلاة المغرب، وبما أن قسم الرجال كان يفصله عن قسم النساء حاجز خشبي مخرم،

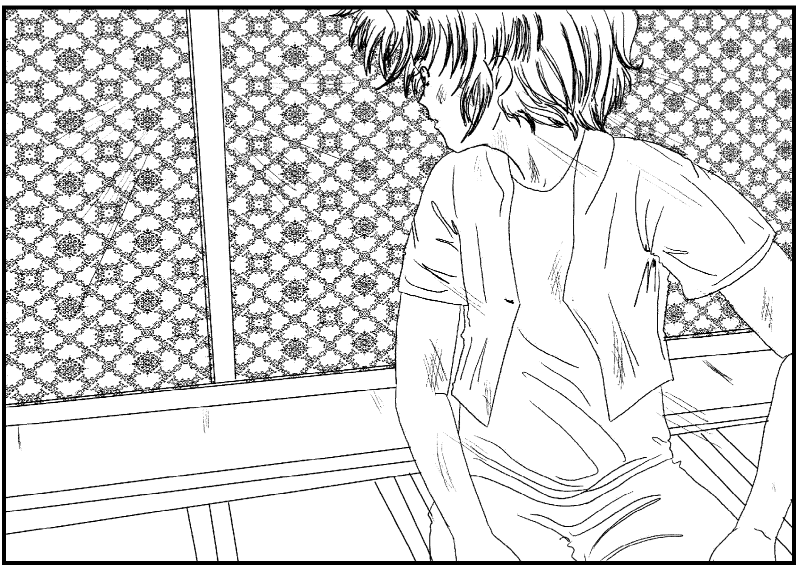
كان بالإمكان رؤية المصلين من ظهورهم إذا ما دقق أحدنا النظر.

لم يكن هذا وقتَ الصلاة، ولكن أحداً كان يصلي هناك، إنه ليس كبيراً، بل إنه لا يجاوز الخامسة عشر من العمر!

أغلقتُ المصحف واقتربتُ من السياج أحدّق جيداً، كان قلبي يتسارع، هل يُعقل هذا؟ إن طوله وشعره وهيأته كلها مطابقة بشكل كبير، كتفاه وذراعاه، ساقاه! ما الذي يجري؟ لقد انعقد لساني، وبدأتُ أشعر بالدموع تغمر عيني.

لفّ رأسه بالتسليم عن يمين وشمال، إنه هو! إنه هو!

صرختُ من خلف السياج: أحمد!



لفّ رأسه تجاهي، فأسرعتُ خارج الغرفة، واتجهتُ راكضة إلى بوابة الرجال حيث كان قد وصل إلى الخارج، إنه هو! أحمد...

رميتُ بجسدي على كتفه أعانقه وأبكي بحـرارة، أحمـد... لقـد عاد إليّ، أخيراً التقينا ثانية.

عانقني أحمد وربّتَ على شعري، للحظاتٍ شعرتُ أننا عـدنا إلى المنزل، إننا في الريف نلعب مع ثلج بين الحقول، لا نفكر في شـيء ولا يحزننا مكروه، نرتمي بين أحضان والدتنا بعد أن يتعبنا اللعب، وكل شيء على ما يرام، كل شيء على ما يرام...

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والثلاثون | أحمد

صليتُ ركعتين لم أصلّ مثلهما في حياتي، إنني منهك، وحيد، يتيم، قاصر، تتقاذفني الحياة يميناً وشمالاً، ولم أعد أعرف ما أفعل.

كل ما آمله الآن هو أن ألتقي بهالة، وأن تكون على ما يرام، يا رب... احمِ هالة وأعدها سالمة إليّ.

شعور من الراحة والطمأنينة كان يغمرني، أشعر بهدوء في نفسي، ليست هناك من مشاكل، ليس هناك من أحزان، كل شيء سيكون على ما يرام.

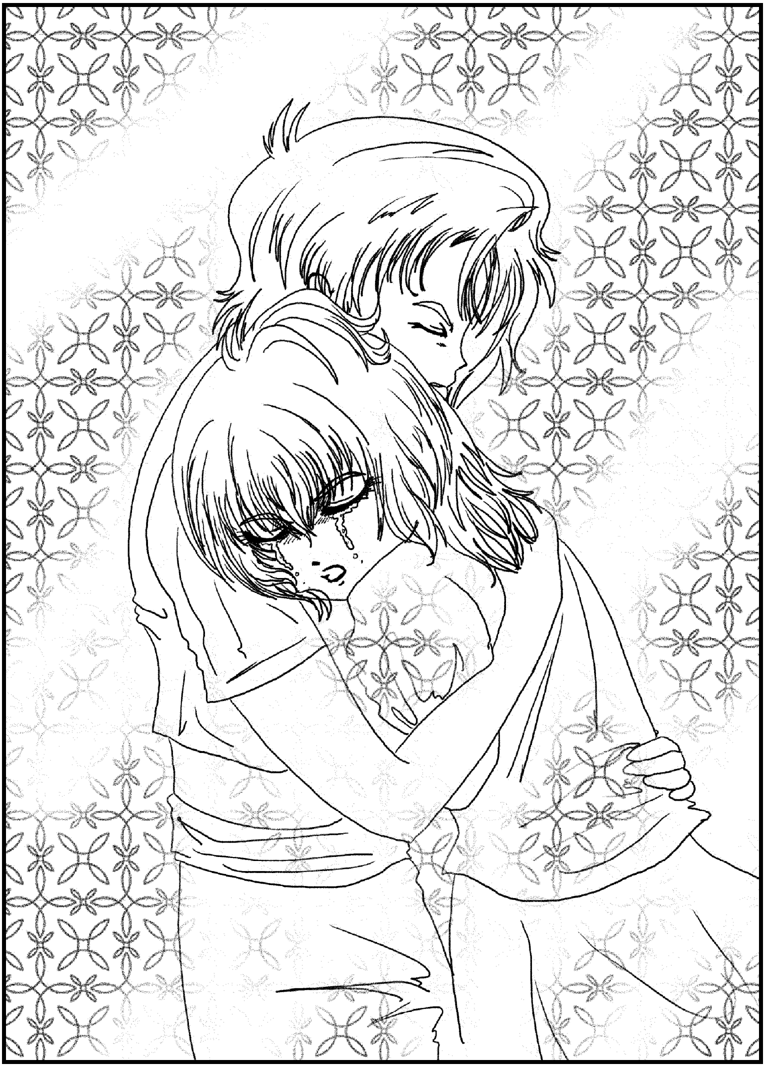
أنهيتُ صلاتي، وسلّمتُ عن يمين وشمال، في تلك اللحظة سمعتُ صوتها، إنها تناديني: أحمد!

لففتُ رأسي أنظر إلى حيث الصوت، هناك سياج خشبي بين غرفة المصلين والمصليات، لستُ أراها بوضوح، ولكنني نهضتُ وأسرعتُ نحو الباب، فكانت قد وصلتْ هناك، إنها هالة!

تعانقنا بحرارة، وبكتْ على صدري، إنها ترتجف بين ذراعيّ، هذه هي الطمأنينة التي سألتك عنها يا رب، ولم تمض دقائق حتى منحتني إياها في أجمل حُلّة، الحمد لله، الحمد لله.

ربّتُ على شعرها ، إنها تبدو على أحسن ما يرام، بثياب

جديدة نظيفة، وشعر مصفف ذو رائحة زكية، يبدو أنهـا قـد تـدبرتْ أمرها بشكل جيد.



اقترب شيخ المسجد منّا، فنظرتْ هالة إليه وقالتْ: هذا هو أحمد، أخي أحمد.

ابتسم الشيخ ووضع يده على كتفي وقال: أهلاً بعودتك يا بني، والحمد لله على السلامة.

شكرته، فعرض علينا استقبالنا في منزله لتناول الغداء، وكان منزله يقرب المسجد، وصلنا وجلسنا في غرفة وحدنا نتبادل الأخبار إلى أن يحضر الطعام، ولم تترك هالة يدي لحظة واحدة مذ اجتمعنا، ولم تتوقف عن الارتجاف وذرف الدموع بين لحظة وأخرى.

حدّثتها عما جرى في السجن باختصار، وأنني علمتُ أنها قد حضرتْ تبحث عني ولم أستطع التحدث إليها، كما أخبرتني عن أهل هذا المسجد، وكيف أنها قضتْ ليال هادئات فيه.

أُعد الطعام، وجلسنا إلى المائدة مع الشيخ وزوجته، كان الطعام ساخناً وشهيّاً، أرز ودجاج ولبن، كما يزين الطاولة طبقان من السلطة، والعصير البارد، وبعض المقبلات.

كنتُ على استعداد لالتهام كل شيء، كان كل شيء شهياً، أو ربما كنتُ جائعاً!

بدأنا تناول الطعام معاً، وشاركنا الشيخ وزوجته، أقدر لهم

أنهم أجّلوا الاستجواب قليلاً، وساد الحديث الخفيف المائدة.

فرغنا من تناول الطعام، لا أذكر أنني شعرتُ بمثل هذا الشبع من قبل، أستطيع أن أتابع أسبوعاً دون طعام.

شاركنا بتنظيف الطاولة، وتحضير الحلويات، كعك مشكّل مع كرة من المثلجات، أشعر أنني في حلم.

أخيراً سألني الشيخ عن مخططاتنا، فأجبته دون تردد: سنسافر.

تعجبتْ هالة، ولكنني قلتُ: لدينا عنوان نبحث عنه.

سألنا الشيخ: أهو أحد الأقرباء؟

أجبتُ: صديق.

سأل الشيخ: وهل ستكونان بخير؟

قلتُ: إن شاء الله، سنتدبر أمرنا.

شعرتُ أن هالة كانت قلقة بعض الشيء، أعلم أنها تتوق للاستقرار، ولكن هناك رحلة علينا القيام بها.

عرض علينا الشيخ المبيت في منزله الليلة، ولكنني استأذنته بالرحيل، لم يكن منزل الشيخ كبيراً، كما كان لديه أولاد كثر، لا يجب أن نضغط عليه في شيء، يكفي أنه أكرم ضيافتنا.

جمعتْ زوجة الشيخ بعض الثياب والطعام والمعلبات في حقيبتين، حمل كل منا واحدة، كما قدّم لنا الشيخ خمسين ديناراً تساعدنا على الرحيل، كان مبلغاً كبيراً ولكنه أصرّ أن نأخذه، حيث لم يستطع أن يقدم لنا منزلاً نأوي إليه.

هكذا انطلقنا، لم تكن هالة سعيدة بهذا القرار، ولكنها كانت تعلم في قرارة نفسها أن جلوسها هنا كان مؤقتاً، وأن علينا أن نتدبر أمرنا لوحدنا من جديد.

مر وقتٌ قبل أن تسألني هالة: إلى أين نتجه؟

أجبتُها: هذه المرة سنقطع الحدود إلى البلاد المجاورة.

سألتْ: عن ماذا نبحث بالضبط؟

أجبتُها: ألا زلتِ تذكرين رقم هاتفه؟

سألتْ: أتعني شادي عبد الحفيظ؟ ألا زلتَ تفكر في الذهاب إليه؟ ولكن الهاتف لم يكن صحيحاً.

أجبتُ: الهاتف لم يكن صحيحاً لأننا لسنا في الدولة الصحيحة، علينا أن نسافر إليه.

قالتْ: لا أريد أن أعود إلى تلك المدينة السيئة، هذه المدينة أفضل.

قلتُ: أنتِ تعنين الشيخ وزوجته، المدينة لم تجلب لنا سوى المتاعب، ألا يكفي افتراقنا كل تلك الفترة.

سكتتْ هالة عن الجدال، ولكنني في قرارة نفسي أعرف أن هذه البلدة أفضل من سابقتها، ولكننا لا نستطيع البقاء في منزل الشيخ وزوجته، فلا يبدوان من الأغنياء، كما أننا لم نلتق بأبنائهم بعد، لابد أنهما يكابران سوء الحال، لا نستطيع أن نضغط عليهما.

تابعنا السير دون كلام، ووصلنا إلى موقف للقطارات، اخترنا القطار المتجه إلى المدينة المجاورة المطلة على البحر، ربما لم نعرف اسم المدينة التي كنّا قد نزلنا بها، ولكن طالما كنّا قد أبحرنا إليها، وغادرنا منها في البحر، فإنه علينا أن نبحث عنها بين الدول المجاورة للبحر، هذا كل ما كنّا نعرفه.

ركبنا القطار، وجلسنا على المقاعد لنكمل رحلتنا، وعدنا كما كنّا، طفلين تائهين هاربين.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والثلاثون | هالة

أمي... لقد عاد أحمد إليّ، أرسله الله إلى حيث كنتُ دون أدنى مشقّة.

أمي... سنغادر المدينة ونترك الاستقرار ثانية، كنتُ أعلم أن كل هذا كان مؤقتاً، ولكنني كنتُ سعيدة ومطمئنة.

أمي... لقد غادرنا المسجد، ولكننا حملنا الصلاة في قلبنا، ولن نتركها منذ اللحظة، أعدك.

أمي... أدعو الله أن يحفظنا، ويسهل علينا طريقنا، ويبعد عنا أشرار الناس.

أمي... أدعو الله ألا نعود إلى تلك المدينة الكئيبة، رغم أنني أريد لقاء شادي عبد الحفيظ، والاستقرار، والعمل الشريف، لستُ أدري كيف يمكن أن يحدث ذلك، ولكنني لا أريد تلك المدينة!

وصلنا مواقف القطارات، بما أننا لم نكن نعرف أسماء المدن، كان علينا أن نخمن أن المدينة التي نبحث عنها كانت على الشاطئ، وهناك خمس دول تطل على الشاطئ نفسه! هل سنعبر خمس دول؟

ركبنا القطار، كان خشبياً ذو طراز قديم، كان ذلك جيداً حيث لن يكلّفنا المال الكثير، جلستُ إلى النافذة أنظر إلى الساحل، كان المنظر

جميلاً، أريد أن أذكر الشيخ فقط في هذه المدينة، لتنطبع في مخيلتي صورة سعيدة.

أخرج أحمد من حقيبته بعض الفطائر التي كانت قد أعدّتها زوجة الشيخ، تناولناها إلى أن بدأ القطار بالتحرك.

كانت هذه أول مرة أركب فيها القطار، بدأ الهواء يداعب شعري، وتسارع القطار إلى أن بلغ أقصى سرعة، إننا نغادر المدينة، وداعاً...

شممتُ رائحة زكية، نظرتُ إلى الخارج فإذا بها حدائق ورود، كان منظراً خلّاباً، ولكن... سبق أن شممتُ هذه الرائحة من قبل، إنها مميزة جداً، هذه الرائحة...

لمحتُ امرأة تقف بين الورود، كانت تقلّمها وتعتني بها، هذه الرائحة هي العطر الذي كانت تحضّره تلك الفتاة التي تبحث عن والدتها، هذا هو عطر والدتها! إنها هي بكل تأكيد.

أخرجتُ رأسي من النافذة وصرختُ إليها: إنها في انتظارك!

ابتعد القطار، ولكنني أظن أنها سمعتني، بل وأظن أيضاً أنهما ستلتقيان يوماً.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والثلاثون | أحمد

أشتم رائحة زكية، هناك ورود جميلة على الشاطئ، ولكن الرائحة مميزة بطريقة غريبة، أذكر أنني شممتها من قبل، ولكن أين؟

استغرق مني التفكير فترة، بينما كانت هالة تخرج رأسها من النافذة تقول: إنها في انتظارك!

أجل، هذه رائحة العطر المميز الذي صنعته الفتاة برائحة والدتها، تلك هي الورود، وهذه هي... أمها!

أدخلتْ هالة رأسها من النافذة، فسألتُها: هل تظنين فعلاً أنها هي؟

أجابتْ: بكل تأكيد، وستلتقيان عاجلاً أم آجلاً.

ابتسمتُ وقلتُ: لم أكن أؤمن بهذا من قبل، ظننتُ لفترة أن ما تفعله كان مضيعة للوقت، بل حكاية خيالية ممزوجة بالأمل والأوهام.

فقالتْ هالة: حكايتنا ليستْ أكثر واقعية من ذلك.

لم أقل شيئاً، ربما كانت على حق ولكنني لا أريد أن أسمع ذلك.

تابع القطار طريقه، ظلّتْ هالة تتابع المناظر الخلاّبة من النافذة، وبدأتُ أنبش حقيبتي أتفحص ما فيها.

لقد وضعتْ زوجة الشيخ الكثير من الطعام والمعلّبات، قد يكفينا هذا الطعام لأكثر من أسبوع، كما وضعتْ قميصان نظيفان وبنطالاً وقبّعة، قد تفيدنا القبّعة كثيراً في السير تحت الشمس، علبة مياه معدنية، وغطاء خفيف، وهناك أيضاً كتاب!

أخرجتُ الكتاب فإذا به كان مصحفاً، جميل أنها تذكرتْ شيئاً كهذا، فتحتُ المصحف ونظرتُ في زخرفاته الجميلة وخطّه الأنيق، لم أندم على ضعفي في القراءة مثل هذا الندم من قبل، أريد أن أقرأ، كم أرغب في أن أتلو شيئاً جديداً، قلبتُ الصفحات إلى قصار السور، وبدأتُ أتلوها حيث تساعدني ذاكرتي على قراءة الأحرف، كان ذلك صعباً ولكنني قضيتُ وقتي في القطار بهذا الشكل.

كانت هالة تراقب الشاطئ من النافذة، بعد فترة لاحظتُ أنها قد استسلمتْ للنوم، أغلقتُ المصحف وأغمضتُ عيني، نمنا بينما يقطع القطار بنا المسافات إلى مستقبل نرجو أن يكون مشرقاً.

مرّت أربع ساعات، وبدأ القطار يتباطأ، يبدو أننا وصلنا، أيقظتُ هالة لنستعد للنزول.

حملنا حقائبنا ونزلنا، كان نسيم الهواء عليلاً، والبحر صاف وأمواجه هادئة، دعوتُ الله أن تكون المدينة آمنة وسكانها طيبين، وأن

نجد ما كنا نبحث عنه.

قالتْ هالة: هذه ليستْ المدينة المطلوبة.

كانت على حق، فمدينة شادي عبد الحفيظ لم تكن هادئة، ولكن من يدري قد يكون الهدوء على الشاطئ فقط، أجبتها: لن نعرف قبل أن نستكشف المدينة.

سرنا على الأقدام إلى أن دخلنا الشوارع الرئيسية، كان كل شيء هادئاً، وكانت المدينة جميلة ومزينة بالأشجار والورود، إنها مدينة منعشة.

توقفتُ أمام هاتف عمومي، وطلبتُ إلى هالة أن تذكرني برقم شادي، فقالت: ٣٢١٠٠٥٩.

وضعتُ المبلغ المطلوب، وطلبتُ الرقم، بقي الهاتف يرن ويرن، لا مجيب، إما أن يكون خارج المنزل، أو أن يكون المنزل مهجوراً! علينا أن نحاول مرة أخرى في وقتٍ لاحق.

أغلقتُ السمّاعة فإذا بهالة تمسك ذراعي وتشدني لأنظر في اتجاه المطعم المجاور، إنه مطعم بسيط يبيع الشطائر، ولكن لدينا الطعام الكافي!

أصرّت هالة أن أنظر إلى المطعم جيداً، أخيراً لمحته، شعر ناعم

غامق اللون، عيون لا مبالية، إنه... فيوج!

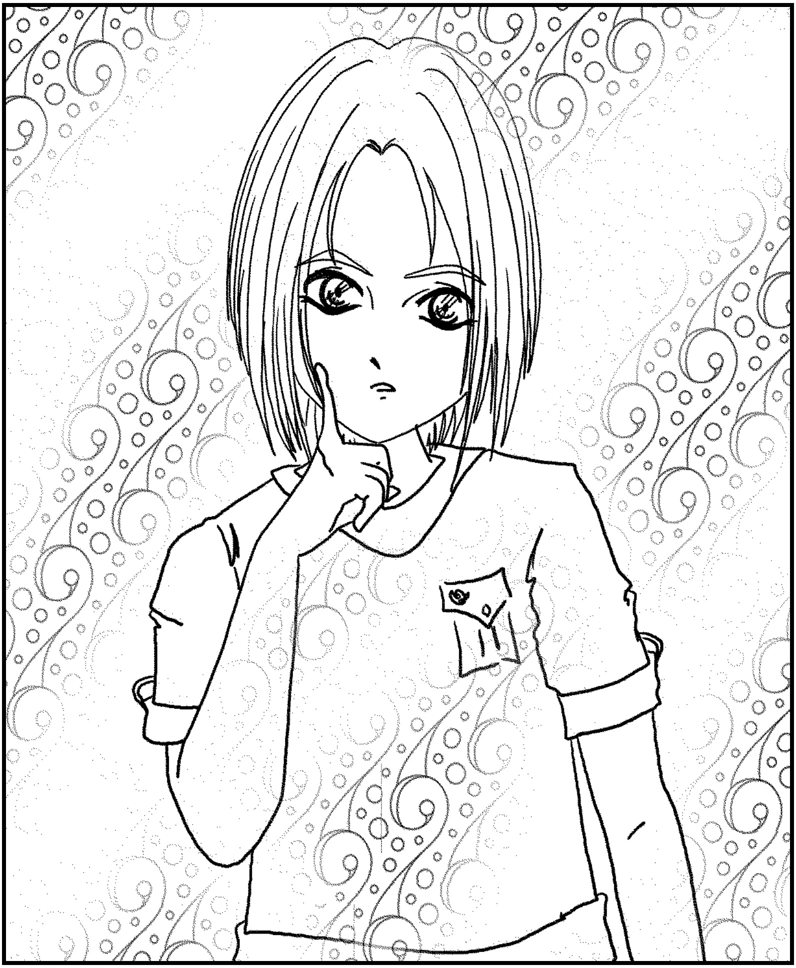
ركضنا تجاهه سعيدين، لا يمكن وصف البهجة عندما تجد من تعرفه في بلاد غريبة، إننا كغريقين وصلا اليابسة، فيوج... رغم أننا لم نقض معاً سوى رحلة بحرية واحدة إلا أننا نشعر أننا نعرفه منذ سنوات.

اخترقنا الطاولات، ثم زاحمنا صفوف الطلبات إلى أن وقفنا أمامه، قلتُ: فيوج! كم هو جميل أن نراك هنا!

قالت هالة: كيف حال العم أمين؟ أهو هنا أيضاً؟

ولكن فيوج كان مصدوماً، لا يبدو سعيداً برؤيتنا، هل كانت صدمته شديدة؟ ابتسم ابتسامته اللامبالية وسألنا: عفواً، هل أعرفكما؟

■ ■ ■



■ ■ ■

■ الفصل السادس والثلاثون | هالة

أمي، لم نفلح في إيجاد شادي، ولم أعد أدري إذا ما كنا سنجده فعلاً، بتّ أشعر أننا عدنا وحدنا وسنظل كذلك إلى الأبد، ليس لدينا من يعرفنا في هذه البلاد، حتى ولو عدنا إلى ديارنا فما من أحد أحب أن ألتقيه من جديد، هذه هي الوحدة الحقيقية، أن تكون محاطاً بالكثيرين ولا يعنيك أحدهم.

عندما أغلق أحمد السماعة كنتُ قد لمحتُ مطعماً صغيراً يبيع الشطائر، كان الناس محتشدين كل ينتظر دوره، وكان ثلاثة أشخاص يعملون في المطعم، أحدهم في الداخل يهتم بالقلي، والثاني يحضّر الشطائر، والأخير يحاسب المشترين.

هذا الأخير استوقفني طويلاً، هذا الشعر، هذه العيون، هذه القامة، هذه الابتسامة، إنه فيوج الشاب الذي ساعدنا لنركب الباخرة! لا أصدق عيني.

كان عليّ أن أتأكد، وأن أشارك أحمد ما أفكر فيه، أمسكتُ ذراع أحمد وأشرتُ إلى المطعم، استغرق ثوان معدودة ليلاحظ ما لاحظتُ، هتف سعيداً: هذا فيوج!

ركضنا سوياً إلى المطعم، ودون أن نفكر اخترقنا طابور المشترين،

كانت هناك نبرات استياء لما نفعل، ولكننا لم نكن لنأبه بأي شيء الآن، كل ما يهمنا أن يرانا فيوج.

وقفنا أمامه مباشرة، وهتفنا سعيدين برؤيته، ولكنه لم يبد الوجه السعيد الذي توقعناه، بل على العكس، كان مصدوماً لما فعلنا، وقد بان عليه الاستياء لما فعلنا بالزبائن، وأخيراً تمالك نفسه ورسم على شفته ابتسامته المعهودة وسأل: عفواً، هل أعرفكما؟

كانت صدمة شديدة، ولكن أحمد تمالك نفسه وقال: الباخرة، نحن الولدان اللذان ساعدتهما لركوب الباخرة والهرب، ألا تذكر؟

باخرة!

تابعتُ قائلة: لقد دللتنا إلى العم أمين، صاحب الباخرة، الرجل الطيب الذي أوصلنا إلى المدينة المجاورة، ألا تذكرنا؟

وضع إصبعه على رأسه يحاول التذكر، ولكن ذلك لم يفلح، اقترب منه زميله في المتجر يسأله: هل تعرفهما؟

بلعتُ ريقي، بعد هذا الاقتحام سيكون مظهرنا سيئاً جداً إن لم يذكرنا، بل ربما يظنون أننا لصوص متشردون، نقوم بخطّة أو حيلة ما لنحصل على ما نريد، ويا للهول، فقد كان جواب فيوج: لا، لم يسبق أن التقيتهما من قبل!

بهذه الجملة تلاشى كل أمل لدينا، هل يُعقل أن يكون شبيها به؟ لماذا تنسد الأبواب قبل أن تُفتح! لماذا يتجاهلنا فيوج هكذا؟

نظر فيوج إلينا وقال بلطف: هلاّ سمحتما للزبائن بالمرور؟

ولكن أحمد لم ييأس، قال: لا يُعقل أن لا تتذكرنا، لقد قضينا وقتاً معاً، وعملنا على متن السفينة، وتحدثنا طويلاً، لماذا تُنكر معرفتنا؟

ولكن فيوج قال: أنا لم أركب سفينة في حياتي، بل لا أحب ركوب البحار فهي تسبب الدوار.

انتهى كل شيء، لابد أنه شبيه له ليس إلا، ولكنه قال بلطف: تستطيعان الانتظار إلى أن أنهي عملي، تفضلا في الجلوس.

لم نعرف ماذا نفعل، هل نغادر أم ننتظر؟ وما فائدة الانتظار، وإلى أين نذهب؟ وكأننا عدنا أدراجنا من حيث بدأنا، بل وكأننا سقطنا بعد تسلق دام أشهر، لوهلة كان فيوج كل شيء، لماذا يحدث هذا؟

ابتعدنا عن المصطفين، على الأقل تابع المطعم عمله كما كان، ولِم يتوقف العمل بطفلين تائهين؟ عمل المطعم أهم من حكايتنا، أهم من أملنا، أي شيء أهم منّا.

بدأت عيناي تدمعان رغماً عني، ما إن لمح أحمد هذا حتى خرج

من صدمته وتمالك نفسه قائلاً: سننتظره إلى أن ينهـي عملـه، لابـد أن هناك سبباً لكل هذا.

ما السبب الذي يجعله ينكرنا؟ نحن لم نفعل له شيئاً، كما أننـا لسنا متّهمين أو مُطارَدَين، وهو لم يغير اسمه أيضاً، فلماذا كل هذا؟

أجلسني أحمد على طاولة خارجية للمطعم، وأظـن أن فيـوج قـد انتبه لذلك، وزاد أحمد إصراراً على محادثته، إنه لا يتقبـل المـسلّمات بسهولة.

انتظرنا وقتاً طويلاً، وبدأت الشمس تغرب، أرجو أن يكـون كـل ما نفعله سيجدي نفعاً.

حاولتُ تقليب الأمور، لا فائدة، لـستُ أدري مـا جـرى، ولمـاذا يفعل ذلك؟ لقد كان لطيفاً جداً معنا دون أن نطلب المساعدة، فيوج الذي أعرفه طيب وخدوم وظريف، هل يُعقل أننـا نقـف أمـام شـبيهه؟ هـل لديه أخ توأم؟ هل ننتظر كل هذا الوقت حتى يقول لنا شيئاً كهذا؟

وإذا ما كان شبيهه، فهو لابد قريب منه، ولابد سـيخبرنا أيـن يكون، ولكننا نعلم أنه في البحر، ولابد أنه بعيد، فما الفائدة؟

يا ترى بم يفكر أحمد، هـو أيـضاً يقلّـب الأمـور في رأسـه، ولم ينطق بأي كلمة مذ جلسنا.

حلّ المساء، ولم يتوقف المطعم عن العمل، رغم أنـه صـغير إلا أن زبائنه كثر، ولم يتوقف فيوج عن العمل لحظة، هذا متعب حقاً.

أخيراً حضر أحدهم ودخل المطعم، وسلّم على فيـوج، يبـدو أنـه سيتبادل العمل معه، فقد بدأ الـدوري الليلـيّ. اسـتبدل فيـوج ثيابـه، وخرج من المطعم، لم نضطر للوقوف والذهاب إليه، فقـد حـضر بنفـسه إلى الطاولة، وسحب كرسياً وجلس إلينا.

رغم كل ما حدث كان ما يزال مبتسماً، تلك الابتـسامة الجميلـة منه، إنه هو بكل تأكيد، مريح كعادتـه، يأخـذ كـل الأمـور ببـساطة، قال: حسناً، ما حكايتكما؟

أجاب أحمد: أنت تعلم حكايتنا، لقد التقينا من قبل.

عدّل فيوج جِلسته وقال: إذن عليكما أن تعيدا شرحها رجاءً.

سألتُه: ألا تذكرنا حقاً؟

قال: ساعداني لأتذكر.

قال أحمد: لقد كنا هاربين من المنـزل، هربنـا مـن ظلـم زوجـة أبي، لقد أنقـذْتَنا مـن الـشرطة، وأرشـدْتَنا إلى البـاخرة حيـث تعمـل، وسـافرنا معـاً إلى أن وصـلنا الـشاطئ، وقـد أرشـدنا العـم أمـين إلى مـن يساعدنا.

وضع فيوج يده على رأسه وقال: هل تعلمان ما يحيرني، أنكما تعرفان اسمي.

قلتُ: بالطبع نعرف اسمك، لقد كنّا معاً.

أشار فيوج بالنفي، وقال: أنا لم أبحر من قبل في حياتي، ولا أحب البحر، ولا أريد أن أعمل فيه.

قال أحمد: ولكن هذا ما جرى.

ابتسم فيوج وقال: كما لا أذكركما على الإطلاق.

سكتنا، بعد برهة سألتُه: هل تملك أخاً يشبهك؟

أجاب: فكّرتُ أنني ربما أشبه من تبحثان عنه، ولكن ليس لدي أخ، كما أنكما تعرفان اسمي بالتحديد.

قال أحمد: ما هذه الألغاز المحيرة!

قال فيوج: لا بأس، فلنفترض أنني أعرفكما، ماذا يُفترض بي أن أفعل؟ هل أستطيع المساعدة؟

كان كريماً كما هو، لا أصدق أنه لا يذكرنا! هل فقد ذاكرته يا ترى؟

فكّرتُ وأحمد بسؤاله، ماذا كنا نرجو من لقائه؟ الإجابة بكل بساطة كانت أننا غريقان يتمسكان بقشّة، ولكن علينا أن نفكر بشيء عمليّ الآن.

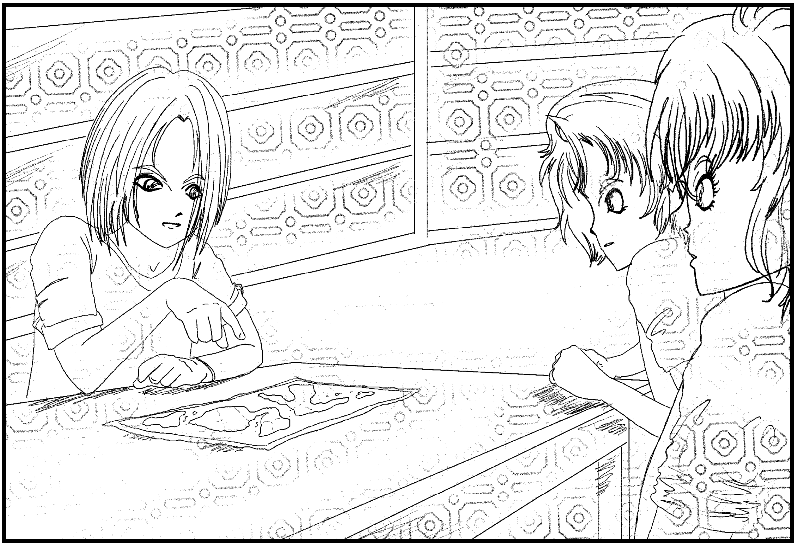
قال أحمد: عندما نزلنا من الباخرة كنا في إحدى المدن الساحلية، ولم نعرف اسمها، غادرنا بطريقة ما إلى مدينة ساحلية أخرى، وعندما قررنا العودة إلى المدينة الأولى لم نهتد إليها، كنا نرجو أن تخبرنا عن اسم المدينة التي نقصد.

قال: آسف لذلك، فأنا لا أعرف المدينة. فكّر قليلاً ثم سأل: ألا تذكرون اسم الباخرة التي ركبتما؟ لعلّنا نتتبع مسيرها.

أشرنا بالنفي، لم أكن أعلم أن للبواخر أسماء كما للبشر! فكّر ثانية في أي دليل، وعندما لاحظ اليأس يتسرب إلينا قال: عندي فكرة، تعالا معي.

نهض فيوج وسرنا معه إلى مكتبة المدينة، كانت جميلة ومرتبة، فيها الكثير من الكتب من مختلف المجالات، ويبدو أن فيوج كان يعرف أين يتجه، فقد دخل إحدى الممرات، وبحث في الكتب الجغرافية، وتناول كتاباً وفتحه بسرعة، إنها خريطة.

جلسنا إلى طاولة قريبة، وعرض فيوج الخريطة وأشار قائلاً: هذه خريطة الدول الساحلية، لدينا خمس دول في هذا الساحل، بالإضافة إلى ثلاث دول أخرى على الساحل الآخر.



ثمان دول! لم أفكر في الساحل الآخر، هل يمكن أن نكون قد قطعنا البحر؟ وهل يتوجب علينا ركوب باخرة مرة أخرى؟

سأل أحمد: وأين نحن الآن؟

أشار فيوج وقال: نحن هنا، في المنتصف، على الجانب الأيمن دولة، والجانب الأيسر ثلاث دول.

قال أحمد: لقد حضرنا إلى هنا عن طريق القطار الخشبي القديم.

ابتسم فيوج وقال: المحطة المجاورة فيها قطار واحد يقطع الحدود مباشرة، أي أنكما كنتما في هذه المدينة.

أشار فيوج إلى المدينة الأولى، أي أن مشوارنا ما يزال طويلاً عبر

ثلاث مدن! وربما أيضاً المدن الثلاث على الساحل الآخر! كيف لنا أن نقطع كل هذا؟

سأل فيوج: إلى أين وجهتكما؟

قال أحمد: لم نعرف اسم المدينة، كل ما نريد أن نذهب إلى رجل اسمه شادي عبد الحفيظ.

ضحك فيوج وقال: من الصعب جداً أن تبحثا عن شخص في ستَ مدن لا تعرفون عنه شيئاً سوى اسمه الثنائي! هذا لن يساعد في شيء.

قلتُ: ولكننا نعرف رقم هاتفه.

تفاجأ فيوج: لديكما رقم الهاتف! وهل تحدثتما إليه؟

قال أحمد: كلما اتصلنا رد علينا شخص آخر، أظن أننا لم نكن في المدينة الصحيحة.

فهم فيوج أخيراً ما يجري، وقال: لكل مدينة هواتفها الخاصة، وإذا كنتَ في مدينة أخرى فعليك إضافة رقم آخر لتتصل عبر المدن.

رقم آخر! كيف لنا أن نعرف شيئاً كهذا، ولكن فيوج فجأة بدا متفائلاً، ولمعتْ في رأسه فكرة جيدة، قال: كل ما نحتاج إليه الآن أن نتصل بشادي، لدينا ستَ مدن هنا، بالإضافة إلى هذه المدينة، نستطيع

أن نسأل عن الرقم الخاص لكل منها ونقوم بالاتصال من هنا مباشرة، لا دعِ للسفر إليها جميعاً.

سأل أحمد: كيف ذلك؟

نهض فيوج مبتهجاً وقال: دعا الأمر لي.

بدا واثقاً مما يفعل، اتجه إلى مكتب الاستقبال، فأعطته الموظفة ورقة صغيرة تحوي عدة أرقام، أخرج هاتفه النقّال وسألنا عن الرقم، أجبتُه على الفور: إنه ٣٢١٠٠٥٩.

بدأ فيوج تجربة الأرقام، أولاً هذه المدينة، ثم بدأ يضع أرقام المدن الأخرى ويجرب الهواتف فيها.

بالنسبة لطفلين صغيرين كانت هذه فكرة سحرية، أن نتحدث إلى شادي من مدينة أخرى، أن نعرف أين هو من هنا! يبدو أن فيوج كان خلاصاً لنا بعد كل شيء.

عفواً، يبدو أنني أخطأتُ الهاتف، وأغلق السماعة في المكالمة الثالثة. المكالمة الرابعة كانت آخر دولة على هذا الساحل، إذا لم يكن شادي فيها فهذا يعني أنه يتوجب علينا السفر بحراً إلى الشاطئ الآخر، وأظن أن هذا سيكون أصعب من سفر البر.

رن الهاتف، رنّ طويلاً، أخيراً أجاب أحدهم، كنّا نسمع فيوج

يقول: مرحباً، منزل السيد شادي عبد الحفيظ... هل هو في المنـزل؟... هل لي أن أتحدث إليه؟...

ابتسم فيوج، ابتهجنا لذلك، أخيراً وبعد رحلة طويلة وجدناه! مدّ فيوج الهاتف إلى أحمد حتى يتحدث إلى شادي، أراه مرتبكاً لم يكن جاهزاً لذلك، لا يبدو أنه يعرف ما سيقول!

وهل هذا مهم الآن؟ المهم أننا نعرف أين هو، وكيف نذهب إليه، لقد جاء الفرج، وفتحت الأبواب، وابتسم لنا القدر أخيراً.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والثلاثون | أحمد

كانت تلك فكرة عبقرية، أن نجرّب أرقام الهواتف ونحن جالسون في مكاننا، لقد تطور العالم فعلاً!

لم نكن نعرف بوجود شيء كهذا، ولم أفكر يوماً كيف يتواصل الناس بين المدن، لربما ظننتُ أن الأرقام مختلفة في كل البلدان، ولم أسمع قطّ عن أرقام خاصة تضاف قبل الرقم لكل دولة.

يبدو الأمر سهلاً الآن، وقد تولّى فيوج المهمة كاملة، بدأ يجرب الأرقام دولة تلو الأخرى، إلى أن وصل إلى الهاتف المطلوب، أخيراً سنتحدث إلى شادي عبد الحفيظ.

مدّ فيوج إليّ الهاتف حتى أتحدث إلى شادي، رغم أنني كنتُ أريد الحديث إليه منذ زمن إلا أنني الآن وفي هذه اللحظة لم أعد أعرف ما سأقول!

ارتبكتُ كثيراً، وكدتُ أُسقط الهاتف من يدي، وتلعثمتُ في الكلام: مرحباً، هل أنت السيد شادي عبد الحفيظ؟

أجاب المتكلم: نعم أنا هو، من المتكلم؟

قلتُ: أنا اسمي أحمد، بعثني إليك السيد أمين غنّام، قائد الباخرة.

قال: أمين! صديقي الحميم، كيف لي أن أساعدك؟

بدى الوضع جيداً، تابعتُ: لقد سافرتُ برفقة أختي من مدينتي، وقد أوصلنا السيد أمين إلى مدينتك وأعطانا رقم هاتفك حيث ستساعدنا في تأمين مأوى مناسب، لن نطلب الكثير ولا نريد أن نُثقل عليك، غرفة صغيرة ستفي بالغرض.

سأل: كم عمرك يا أحمد؟

أجبتُ: اثنا عشر عاماً، وأختي توأمي.

قال: وأين أنتما الآن؟

فكّرتُ قليلاً ثم قلتُ: بصراحة ابتعدنا عن المدينة إلى دولة أخرى، ولكننا سنسافر حيث تكون.

فكّر شادي قليلاً ثم قال: بصراحة لم تعد هذه المدينة آمنة كسابق عهدها، لا أنصحكما بالحضور إلى هنا.

كنّا قد عاينّا ذلك من قبل فعلاً، تابع: هناك مدينة في الجوار أكثر أمناً وأفضل عيشاً، ولدي صديق هناك سيعتني بكما.

سألتُ: هل يستطيع أن يوفر لنا مكاناً نسكن فيه؟

أجاب: سيتولى كل شيء، إنه يملك عدة شقق في المنطقة، أخبراه أنكما على اتصال معي، وسيساعدكما.

سألته: وأين نجده؟

وصف لي العنوان كاملاً، بينما كنتُ أردده كان فيوج قد أخرج ورقة وكتب العنوان ورقم الهاتف، شكرته على تعاونه وأغلقتُ الهاتف، هذا الاتصال الذي تطلّب منا السفر والمعاناة مدة لا تقل عن الشهر قد انتهى الآن، لقد تحدثنا إلى السيد شادي، لا أصدق!

ناولني فيوج العنوان قائلاً: تهانينا.

لم ندر ما نقول، كنّا ما نزال في إثر الصدمة، لقد أغلقتُ الهاتف للتو، كان ذلك شادي عبد الحفيظ! كأنني في حلم.

لاحظ فيوج تفاجأنا، فقال: هذه المدينة ليست بعيدة، قطار واحد يفصلنا، ولكن لا قطارات في المساء، عليكما أن تنتظرا إلى الصباح.

ما زلنا واقفين لا ندري ما نفعل، فدفعنا فيوج لنخرج من المكتبة وهو يقول: لقد أنجزنا ما جئنا من أجله، نحتاج قسطاً من الراحة.

خرجنا من المكتبة ووقفنا على البوابة، نظرتُ إلى فيوج وقلتُ: أنا فعلاً ممتن لك، ما كنّا لنصل بهذه السهولة لولا مساعدتك، أنا عاجز عن الشكر.

وضع فيوج يداه خلف رأسه وقال: لا عليك، لم يكن شيئاً

يُذكر، أخبراني أين ستنامان الليلة؟

نظرتُ إلى هالة، فما نزال لا نعرف أي شيء عن هذه المدينة، ولكن فيوج يسّر علينا المهمة أيضاً بقوله: ليس لديكما مكان تنامان فيه، ما رأيكما أن تقضيا الليلة عندي.

تفاجأنا لهذا العرض السخيّ، قالتْ هالة: لقد فعلتَ لنا الكثير إلى الآن، لا عليك، سنتدبر أمرنا.

سأل: هل لديكما النقود الكافية لتدفعا أجرة فندق ثم أجرة قطار؟

لم نكن نملك أجرة فندق، كل ما كنا سنفعله هو أن نسير في الطرقات نبحث عن مكان قد يكون آمنا دافئاً لننام فيه، وغالباً ما كان أمرنا سينتهي في الزقاق، أجبتُ: لا، لانملك المال الكافي.

ابتسم وقال: إذن ستنامان عندي الليلة، غرفتي ليستْ كبيرة ولكنها ذات سقف وأربع جدران، تقيكما البرد واللصوص، وفي الصباح تستقلان القطار.

لا يمكن أن نرفض عرضاً كهذا، ذهبنا معه إلى منزله، كانت غرفة في شقة ليس إلا، لا تتجاوز الغرفة الأربعة أمتار، وفيها زاوية للطبخ، وحمام صغير جداً، ولكنها كانت فاخرة بالنسبة للعراء.

فرش فيوج أغطية على الأرض، وأخرجنا لحافنا من الحقائب، فبات كل شيء جاهزاً لليلة هادئة جميلة.

رغم أن فيوج عرض علينا أن ننام على فراشه إلا أننا أبينا إلا أن ننام على الأرض ونتركه ينام على فراشه، فقد أغدق علينا بكرمه إلى الآن ما لا نستطيع أن نرده في قرون.

حلّ الصباح، واستيقظنا باكراً، أوصلنا فيوج إلى محطة القطار، أخيراً نحن ذاهبان إلى المأوى، إلى هدفنا الذي أخذ منا الكثير من الوقت والجهد، ها نحن نستقل القطار مباشرة إلى هدفنا.

وقف فيوج يُدخلنا القطار، وقفنا على البوابة ننظر إليه، لوّح بيده مودعاً، وبدون تفكير ركضتُ وهالة إليه نعانقه، حتى وإن لم يذكرنا، حتى وإن لم يكن هو نفسه فيوج الذي عرفناه، فقد ساعدنا كما ساعدنا فيوج من قبل، مرّ زمن لم نشعر فيه بالقرب من أحدهم، بالأمان، بالمحبّة.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن والثلاثون | هالة

كانت أمي تربتّ على شعري أثناء نومي، مع أنني أكون نائمة إلا أنني كنتُ أعلم أنها تفعل ذلك دوماً، كنتُ أشعر بيدها على شعري، واليوم أشعر بيدها تداعب شعري، إنني في أمان، بين من يحبونني ويتمنون لي الخير، وكأنها هنا تعتني بي.

استيقظنا في صباح اليوم التالي، وأوصلنا فيوج إلى المحطة المطلوبة، اقتربت نهاية العناء، لستُ أدري كم من الوقت مضى، ولكنني على يقين الآن أنه لم يتبق سوى القليل، إضافة إلى توفر نقود وطعام الرحلة، أشعر أننا في أمان.

وقفنا أمام القطار المطلوب، ووضعنا قدمنا على البوابة، ثم نظرنا إلى فيوج يودعنا، لقد كان أكثر من ساعدنا في هذه الرحلة، وأياً كانت حقيقته فقد ساعدنا مرتين، ولن ننساه أبداً.

ركضنا إليه نعانقه، شكراً وامتناناً، حباً واشتياقاً، بل أكثر من ذلك، فقد كان منا بمثابة المنزل الآمن.

لم تكن الأحرف والكلمات كافية لشكره، أردتُ أن أقدّم له شيئاً، أي شيء يعبّر عن امتناننا، ولكنني لا أملك في حقيبتي سوى الطعام واللحاف! أمسكتُ يده أحاول أن نبقى معاً أطول مدة ممكنة،

فرأيتُ سواراً نحاسياً على يده...

كان فيوج البحّار يُكثر من الاكسسوارات الرخيصة، كما كان يفعل معظم البحّارة، كان يرتدي في اليد الواحدة أكثر من سوار، ولكن هذا السوار... هل أستطيع أن أجزم أنه كان يرتديه، هل أستطيع أن أتذكر الاكسسوارات؟

ركّزي يا هالة، ركّزي... سوار نحاسي رفيع، سوار نحاسي... عادتْ بي الذاكرة سريعاً، اليد اليمنى كان فيها سوار خشبي وآخر حديدي، اليد اليسرى... كان فيها سوار حديدي وآخر... نحاسي.

هناك نقش على السلسلة، كلمة كُتبتْ على السوار، إنه اسمه "فيوج".

تذكرت، إنه نفس السوار، إنه هو بالتأكيد، لم تسمح لي الفرصة في رؤية النقش عن قرب قبل الآن، ولكنه السوار نفسه! إنه هو، فيوج بعينه! ولكن لماذا ينكرنا؟ ما الذي جرى؟

رُفعتْ صفارة القطار، وحان وقتُ الرحيل، سحبني أحمد إلى البوابة قبل أن تقفل، قلتُ بسرعة وأحمد يجرني إلى القطار: شكراً على كل شيء، أرجو أن نراك بخير، شكراً...

أقفل الباب، وقد كنا في الداخل في اللحظة الأخيرة، فيوج...

لماذا تنكرنا ثم تساعدنا؟ ما حكايتك أيها الشاب الطيب؟

هكذا ركبنا القطار متجهين مباشرة إلى هدفنا، سقف آمن، أرجو أن يكون الرجل الذي نقصد طيباً وكريماً، فنحن نحتاج للكثير، فلسنا نملك شيئاً.

لستُ أمانع في العمل، يجب أن نحصل على قوت يومنا بأنفسنا، ربما نحتاج إلى المساعدة ولكن ليس طول العمر.

أحاول التفكير فيما أجيد، الزراعة، الطهي، التنظيف، لقد علّمتنا حياة الشقاء الكثير، لابد أن يفيدنا ذلك.

جميل أن نفكر في المستقبل، لم أعد أشعر بالخوف، فهدفنا بات واضحاً، والأمور لابد أن تتيسر بعد العسر، كما أنني لستُ وحدي، فقد أعاد الله إلي أحمد، وهو يقف سالماً إلى جانبي.

هل أستطيع أخيراً أن أقول وداعاً، وداعاً للشقاء، وداعاً للحرمان، وداعاً للظلم، وداعاً للجوع، وداعاً للبرد.

نظرتُ إلى أحمد حيث رأيتُ في عينيه بريق الأمل، إنها راحة حقيقية، نظر إليّ ووضع ذراعه على كتفي وقادني إلى المقعد الذي حجزناه.

كان هذا القطار أجمل وأكبر من سابقه، يبدو متطوراً، وقد

غمرنا بإحساس التجديد، لقد تغيرت حياتنا منذ اللحظة الـتي وطئنـا فيها هذا القطار.

جلستُ إلى النافذة أراقب الشاطئ، هذا القطار أسرع من سـابقه، أستطيع أن أرى كم جميل هو البحر، رغم أنـني رأيتـه عـدة مـرات إلا أنني أراه الأجمل هذه المرة.

بعد ساعتين قدموا إلينا الغداء، لا جـوع بعـد اليـوم، كـل شـيء شهيّ، والجو مكيّف، المقاعد مريحة، لـستُ أمـانع في العـيش هنـا إلى الأبد.

تناولنا الغداء ثم تحدثنا حديثاً بسيطاً، ضحكنا بـبراءة كنّـا قـد نسيناها، ثم غلبنا النوم.

أيقظني أحمد حين توقف القطار، لقد وصلنا، نزلنـا مـن القطـار إلى المدينة المطلوبة، تبدو مدينة جميلة وهادئة، وقد توقـف القطـار في محطة مليئة بالمسافرين، تبدو المحطة كبيرة، وفيها سوق كبير.

الآن علينا أن نتجه مباشرة إلى عنواننا، خرجنا من المحطة فإذا بـسيارات أجـرة تقـف بانتظـار الواصـلين، قررنـا أن نختـصر معانـاة البحث، وأعطينا العنوان لسائق أجرة ليوصلنا.

حتى سيارات الأجرة كانت مكيّفة، كانت نظيفة وقد علّق فيهـا

السائق بعض الدببة، مرّ زمن طويل ولم أر فيه أي لعبة!

ثلث ساعة في السيارة، ثم وصلنا، إنها عمارة جميلة، نظيفة جداً، ذات نوافذ كبيرة وزجاج لامع، مكونة من خمسة طوابق، أشار إلينا سائق الأجرة أن عنواننا هو الطابق الثالث، الشقة التاسعة.

دفعنا الأجرة، ودخلنا بوابة العمارة، حتى البوابة كانت كبيرة وجميلة، مدهونة بالأسود والأصفر، على جانبي المدخل حديقة صغيرة أحدهم يعتني بها جيداً، فيها أزهار من مختلف الألوان، وبعض الأشجار المثمرة.

باب العمارة الداخلي كان من الزجاج المنقوش، فتحناه ودخلنا، كان الدرج نظيفاً، والبلاط يعكس ما فوقه، يبدو أنه من نوعية فاخرة، كما يوجد مصعد أيضاً.

صعدنا الدرج حيث لم نكن نعرف كيف نستخدم المصعد، ووصلنا الطابق الثالث، هناك ثلاثة أبواب، الشقة رقم سبعة، وثمانية، وتسعة وهي العنوان المطلوب.

دققنا الجرس، وقد بدأتُ أشعر بدقات قلبي تتسارع، فتح لنا الباب شاب في الأربعين، ذو لحية قصيرة، وشعر قصير بني اللون، وعيون سوداء، يرتدي بجامة عملية، سأل: عفواً، من تكونان؟

هذه حكاية طويلة، ولكن أحمد اختصر وِقفة الباب قائلاً: قدمنا من طرف السيد شادي عبد الحفيظ، لقد طلب إلينا الحضور إليك.

كان ذلك كافياً لإدخالنا، رغم أننا قطعنا مسافة طويلة وشاقة إلا أننا لم نكن نعلم ما سيفعله هذا الرجل لنا، كل أملنا أن ننام في منزل آمن.

روينا حكايتنا له، كان اسمه سامي، يعيش وحده في شقته دون زوجة أو أولاد، يبدو شاحباً ومرهقاً، وبعد أن استمع إلى حكايتنا قال: إذن والدكما على قيد الحياة.

لم نقل شيئاً، لا نريد أن يعيدنا أحد إليه، أتمنى ألا يطرح فكرة كهذه! ولكنه تابع: في العادة لا أقبل الأولاد الهاربين، ما دام هناك من يعتني بهم فإنه ليس من حقي أن أساعدهم على الهرب.

قلتُ: ولكنه لم يكن إلى صفّنا.

قال: ماذا إذا ما سأل عنكما، ماذا سأخبر الشرطة حينها؟

قال أحمد: لن يكلف نفسه عناء البحث عنا في دولة أخرى، ربما لم يبحث عنّا منذ تلك الليلة.

وضع سامي يده على رأسه يفكر، كان أمراً محيراً وقراراً صعباً أن يسلّم بكلام طفلين هاربين، ربما يطلب أن يقابل والدنا، في هذه

الحال علينا الهرب من هنا على الفور!

لستُ أدري كيف خطر لأحمد أن يطرح اسمه الآن، ولكنه بإلهام إلهي فعل: لقد ساعدنا أمين غانم على الهرب، سافرنا معه في الباخرة.

تفاجأ سامي: أمين ساعدكما على الهرب! لا يمكن أن يفعل شيئاً كهذا!

قال أحمد: لقد فعل، لأنه يعرف زوجة أبينا، لقد آذت والده الحاج غانم، لقد توفي بسببها.

صمت سامي، ثم نهض وأحضر مفتاحاً وناوله لأحمد قائلاً: ما دام أمين قد ساعدكما، فليس لي أن أجادل.

■ ■ ■

■ الفصل التاسع والثلاثون | أحمد

كان يُدعى سامياً، يبدو مرهقاً ولكن ملامح الطيبة بادية عليه، ليس كبيراً، ولستُ أدري ما يستطيع أن يقدمه لنا.

فجأة لم أعد أدري لِمَ نحن هنا، ولكننا وصلنا هدفنا، وعلينا أن نتابع تقدمنا مهما جرى.

لا يبدو مقتنعاً بما نقول، إلى أن خطر لي أن أذكر البحّار أمين غانم، ظننتُ أن الثلاثة على صلة ببعضهم، وكان أمين أكبرهم وأكثرهم نفوذاً، لابد أنه يعرفه، وقد صدق حدسي، فما إن ذكرتُ أميناً حتى تغير مسرى الأمور.

جلب سامي مفتاح الشقة المجاورة، سنسكن هنا، هذا منزلنا، لم أكن أحلم بأكثر من ذلك.

ممر يتفرع إلى غرفة نوم بسرير واحد، وصالة صغيرة لا تحوي سوى ثلاث كراس وطاولة صغيرة، مطبخ متواضع، فيه ثلاجة بحجم صغير وغاز، بالإضافة إلى الحمّام، هذا كان كل شيء، ولكنه بالنسبة إلينا كان الجنّة.

قال سامي: أعتذر لصغرها، ولكنها غرفة مصممة لطالب، أظن أنها تفي بالغرض الآن.

سألتْ هالة: هل هذه لنا؟

قال سامي: إنها لكما، إلى أن تتدبرا أمركما.

قلتُ على الفور: سأبحث عن عمل، لن نكون عبئاً عليك.

قال سامي: لا تقلق، لن أطلب منكما الإيجار، فأنتما ضيفان هنا، ضعا حقيبتكما وخذا قسطاً من الراحة، قد تحتاجان إلى حمّام الآن، أظن أن المياه ساخنة في هذا الوقت.

بدأتْ هالة تذرف الدموع، كنتُ على وشك أن أفعل أيضاً، أمسكتُ بذراعها ودخلنا الشقة، هذا منزلنا، بعد طول سفر وعناء هذا مستقرّنا.

كلانا فكّر في الأمر نفسه، في لحظة كهذه كان السجود لله أفضل ما نفعل.

■ ■ ■

■ الفصل الأربعون | هالة

أمـي... لقـد عمـل أحمـد في مطعـم قريـب، وعملـتُ في متجـر للمثلجات، وبتنا نحصل على قدر لا بأس به من المـال، يكفـي طعامنـا ولباسنا وأساسيات المنزل.

أمي... السيد سامي كان لطيفاً جداً، ومع ذلك كان يغـادر شـقته معظـم الوقـت، لم نعلـم عنـه الكـثير إلى أن اكتـشفنا أنـه يـذهب إلى المستشفى، وغالباً ما كان يقضي ليلة أو اثنتين هناك، علمنا مؤخراً أنـه مصاب بداء مستعصٍ، وهو بحاجة إلى العناية.

أمي... لم نكن الوحيدين اللذين ساعدهما السيد سـامي، ولكننـا لم نكن على اتصال بالآخرين، حيـث يأخـذ العمـل معظـم الوقـت، وفي المساء نجلس معاً أنا وأحمد نتحدث ونتناول الطعـام سـوياً، فعـلاً إنـه كما أخبرتني، إن الأخ هو أكبر نعمة في الدنيا.

أمي... لقد مشينا كثيراً، وجعنا وعطشنا، وخفنا، فبعد اليوم لا جوع ولا عطش ولا خوف، هذا منزلنا، وهذه نقودنـا، وهـذا طعامنـا، وهذا فراشنا، لا يشاركنا فيه أحد، ولا يطالبنا به أحد.

أمي... أحمد لم يتغير، حتى في الشقة كـان يجعلـني أنـام علـى الفراش بينما ينام علـى الأرض، يلـفّ نفـسه باللحـاف، كـان يتنـاول

الطعام ببطء حتى أكمل طعامي ويتأكد أنني شبعتُ قبله، كان يوصلني إلى عملي قبل أن يذهب إلى عمله الذي يقع على شارع مختلف، كما كنّا نعود معاً إلى المنزل.

كان يصرف من نقوده على طعامنا بينما لم يطلب مني قرشاً واحداً، هذا هو أحمد، هذا أخي، الذي أحمد الله عليه كل ليلة قبل النوم، وفي صباح اليوم الجديد، وأدعو أن لا يفرقنا الزمن، وأن لا يحوّل قلوبنا، وأن يبارك الله لنا نعمه، وأن لا نعود لحياة الشقاء ثانية أبداً.

■ ■ ■

تم بحمد الله الجزء الثاني، يتبع الجزء الثالث...